المركز القومي للترجمة

أندريه جيد

حبيسة بواتييه

(يتبعها قضية روديرو)



2381



سلسلة الإبداع القصصي





حبيبة بواتييه

رواية

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2381
- حبيسة بواتييه
- أندريه جيد
- سحر سمير يوسف
- الطبعة الأولى 2017

هذه ترجمة:
La séquestrée de Poitiers
Par: André Gide

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

رواية

حبيسة بواتييه

(يتبعها قضية روديرو)

تأليف: أندريه جيد

ترجمة: سحر سمير يوسف



2017

جيد، اندريه، ١٨٦٩ ـ ١٩٥١.
حبيسة بواتييه يتبعها قضية روديرو/ أندريه
جيد؛ ترجمة: سحر سمير يوسف. ـ القاهرة:
المركز القومى للترجمة، ٢٠١٧.
١٥٦ ص؛ ٢٠ سم.
تدمك ٠ ١١٨٠ ٩٢ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ القصص الفرنسية.
أ ـ يوسف، سحر سمير. (مترجم)
ب ـ العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب ١٥٦١٣/ ٢٠١٧
I. S. B. N 978 - 977 - 92 - 1180 - 0
ديوى ٨٤٣

المحتويات

«اكتشفت أن شقاء الإنسان منبعه أمر واحد، وهو عدم قدرته على البقاء فى هدوء داخل غرفة».

(باسكال، تأملات، ص 94، الناشر: ماسيس)

«يكفى، فى معظم الأحيان، إضافة مجموعة من الأشياء البسيطة والطبيعية، الواحدة إلى الأخرى، لنحصل فى النهاية على محصلة بشعة».

(المزيفون، الجزء الأول، ص 51)

كلمة المترجمة

كان أندريه چيد (1869 - 1951)، الحاصل على جائزة نوبل، شديد الانشغال طيلة حياته بالعدالة وقضاياها، وقد تم تعيينه محلفا فى عام 1912؛ حيث قضى الفترة من 13 إلى 25 مايو داخل محكمة جنايات مدينة روان. وقد سجل انطباعاته عن هذه الفترة فى كتاب صدر فيما بعد تحت عنوان «ذكرياتى فى محكمة الجنايات».

ولشدة انشغاله وشغفه بالعدل والقضاء والحقيقة أسس داخل الجريدة الفرنسية الجديدة سلسلة خاصة تحمل عنوانا بليغا: «لا تطلقوا الأحكام»، كان يعرض من خلالها بعض القضايا التى عجزت النظريات التقليدية لعلم النفس عن إيجاد تفسير لها وباتت محيرة أمام القضاء، وكان جيد يعتمد فى هذا العرض على مجرد تنسيق الوثائق الأصلية وطرحها دون تدخل منه وقد كان الملف الأول الذى جمعه أندريه جيد لعرضه فى هذه السلسلة هو ملف قضية حبيسة بواتييه:

أعلم النائب العام فى مدينة بواتييه، عن طريق رسالة من مجهول فى الثانى والعشرين من شهر مايو 1901، أن الآنسة ميلانى باستيان،

والبالغة من العمر اثنين وخمسين عامًا، ظلت محبوسة لأكثر من خمسة وعشرين عامًا فى منزل والدتها (أرملة العميد السابق لكلية الآداب فى مدينة بواتييه)، وذلك فى حجرة قذرة منفرة، تعيش فيها وسط القاذورات وفى ظلام دامس.

كيف انتهت هذه القضية المخيفة، التى بدت المسئولية الجنائية للسيدة باستيان وولدها عنها واضحة جلية، ببراءة المتهمين؟

يسهم العرض الذى أعده أندريه چيد فى فهم هذا القرار؛ حيث يلقى الضوء بمهارة غير مسبوقة على هذه القضية التى وصفت بأنها أسطورية.

أما الملف الثانى فى هذا الكتاب فهو ملف قضية روديرو:

فى الثالث عشر من شهر سبتمبر عام 1913، أقدم شاب يانع يدعى مارسيل روديرو، يبلغ من العمر خمسة عشر عاما، ويعمل خادمًا لدى الزوجين المزارعين فى منطقة (شارونت) ويدعون (مابينت)، أقدم ذلك الشاب فجأة ودون مقدمات على قتل كل أفراد عائلة (مابيت) بالإضافة إلى خادمتهم. فى المجمل سبعة أفراد. ما الذى دفع ذلك الغلام الرقيق الهادئ الطبع، المعروف عنه سلامته الكاملة من الناحية الجسمانية والعقلية، وهو ابن لوالدين كريمين شريفين، إلى اقتراف هذه الجريمة؟

❊ ❊ ❊

حبيسةَ بواتييه

مقدمة

أشعر بشيء من التردد إزاء سرد أَحداث هذه القصة الفريدة من نوعها. فكان همى الأول والأخير، عند إعدادى لهذا العرض الموضوعى الذى أقدمه اليوم، يقتصر على تنظيم وترتيب الوثائق التى استطعت جمعَها حول هذا الموضوع... ومن ثم أتوارى تماما أمام الحقائق.

إليكم فيما يلى النص الذى عرضت به جريدة «الحياة المصورة» لقرائها، فى عام 1901، تفاصيل القضية العجيبة التى سنتناولها فى هذا الكتاب.

المآسى المستترة

حبيسة بواتييه

«فى مدينة بواتييه، وتحديدًا فى أحد شوارعها التى يخيم عليها الهدوء والسكينة والذى يحمل اسما يذكر بحياة الرهبان، تعيش إحدى عائلات الطبقة البرجوازية الراقية وهى عائلة طالما حظيت باحترام شديد من كل سكان المنطقة. كانت السيدة (باستيان)[1] التى ولدت فى «شار تروه» من

---

(١) يبدو أن أندريه جيد قد عمد فى وقت نشر هذه القضية إلى استبدال بالأسماء والألقاب العائلية للشخوص الرئيسية لهذه المأساة أسماء أخرى من نسج خياله، غير أن الصور المرفقة تفصح عن هوياتهم الحقيقية كما نشرتها الصحافة فى ذلك الوقت.

عائلة أرستقراطية عريقة النسب، أرملة تسكن أحد بيوت هذا الشارع مع ولدها السيد بيير باستيان، الوكيل السابق لوالى مقاطعة (بوجيه - تينييه).

كانت السيدة باستيان والبالغة من العمر خمسة وسبعين عاما تسكن المنزل نفسه الذى عاشت فيه مع زوجها، العميد السابق لكلية الآداب فى تلك المدينة الريفية القديمة. أما ولدها، الذى كان متزوجا من سيدة إسبانية ذات طبع أقل هدوءا منه، كان قد عاد وحيدًا إلى بواتييه، وكان يسكن البناية المواجهة لمنزل والدته. وكان ثمة شخص ثالث ينتمى لهذه العائلة: الابنة، فتاة تدعى «ميلانى»، كان يراها الجميع بشوشًا، ضاحكة حتى بلغت الخامسة والعشرين ثم ما لبثت أن اختفت فجأة.

يقولون إنها أصيبت بمرض عقلى. كانت والدتها السيدة باستيان قد أودعتها فى بادئ الأمر إحدى المصحات، ثم عادت، بدافع من الوفاء والرحمة، واستعادتها لتقوم بعلاجها ورعايتها بمساعدة خادمة عجوز وراء جدران ذلك البيت الكئيب بنوافذه المغلقة بإحكام، والذى ما عادت قدم تطأ عتبته.

كانت تلك الخادمة العجوز ـ وتدعى السيدة (رينار) ـ قد ظلت فى خدمة أربابها لـ أربعين عامًا تقريبًا، وقد حصلت منذ ستة أعوام فقط، وبناء على طلب قدمه السيد بيير باستيان، الذى كان هو أيضا يقدر الدم الأزرق الذى يجرى فى عروقه ويطلق على نفسه لقب (دى شارتروه)، حصلت على ميدالية من جمعية التشجيع على عمل الخير. وكانت هذه الجائزة الرفيعة بمثابة تشريف للخادمة العجوز ولأربابها المعروفين بالفضيلة فى الوقت ذاته.

غير أن تلك السيدة الفاضلة ماتت لتدخل المنزل خادمتان جديدتان تماما. ذلك المنزل الغريب الذى كانت بعض نوافذه مغلقة بإحكام بواسطة أقفال من الخارج، وتصدر عنه أحيانا صرخات مكتومة وكأنها تأتى من مكان سحيق.

والحال هذه، كانت إحدى الخادمات لا تتورع أن تستقبل عندما يحل الليل، فى ذلك البيت الذى يغلب عليه طابع القسوة، جنديا قوى البنيان يعمل وصيفًا مرافقًا لأحد ضباط الحامية، كانت قد تعرفت إليه. هذا الجندى الذى كان أكثر براعة فى استخدام أدوات الكتابة وسبل المديح من الحراب والبندقية لم يكن متحفظًا أمينًا على الأسرار مثل ما كانت السيدة رينار ولم يكن يجهل أن الرسائل من مجهول ما كانت لتضير كاتبها فى شىء. ولذا شرع فى كتابة رسالة من هذا النوع. وعندئذ وصل إلى علم وكيل نيابة مدينة بواتييه (الذى يساعده فى أداء عمله جهاز شرطة قليل الفضول) أمران مهمان: 1) أن الآنسة ميلانى باستيان ليست مصابة بالجنون، 2) أن هذه الفتاة ظلت محبوسة لأكثر من أربعة وعشرين عامًا فى غرفة قذرة. تلك الغرفة التى أغلقت نوافذها بإحكام بالأقفال، والتى يصدر عنها صوت أنين من وقت لآخر، حيث كانت لا تخرج أبدا وتعيش فى هذه الغرفة وسط القاذورات، والحشرات الطفيلية والديدان والفئران فى ظلام دامس ودون طعام يذكر.

فيما بعد شعر هؤلاء السادة، وكيل النيابة ومعاونوه، بالانفعال والقلق عند قراءة هذه الرسالة، فقد كانوا يكنون لأسرة باستيان الكثير

من الاحترام كما كان يفعل الجميع. وعلى الرغم من ذلك أقدموا على اقتحام المكان ووجدوا عندئذ تلك المخلوقة البائسة ممددة فى غرفة غير صالحة لسكنى البشر ويصعب وصفها.

«وما الأسباب؟ إليكم ما كان يتناقله سكان مدينة بواتييه: كانت الآنسة ميلانى باستيان قد عرفت الحب فى سن الخامسة والعشرين ووهبت نفسها لمن أحبت. وأغلب الظن أن طفلًا كان ثمرة هذا العشق. ومازال الناس يعتقدون بأن هذا الطفل قد تم التخلص منه.

ومن أجل معاقبة هذه الفتاة المسكينة على ما اعتبره العالم إثمًا ولمنعها من إفشاء سرها، أقدمت السيدة المحترمة الفاضلة، الرائعة مدام باستيان دى شارترو، مستعينة فى ذلك بصمت ابنها الموقر، على حبس ميلانى المسكينة فى ذلك المكان القذر الذى أبت الموت فيه، وتم اكتشافها حبيسة داخله بعد أربعة وعشرين عاما.

«إنها مأساة مفزعة، مأساة الأحكام المسبقة التى تطلق دون هدى، مأساة معايير ما هو جدير بالاحترام وما هو غير جدير بذلك. مأساة غياب الفضيلة. والأبشع من كل ذلك هو جبن الشهود الذين ظهروا اليوم فى أعداد كبيرة بينما التزموا الصمت المطبق طيلة ربع قرن كان البوح بالأمر خلالها أقل ضررًا لا محالة».

صحيح أن كتمان الأسرار فضيلة ولكن هذه الفضيلة قد تصل أحيانًا لحد الجبن. فهى أيضا ظلت طيلة أربعة وعشرين عامًا شريكًا فى الجرم الذى ارتكبته الفضيلة القاسية للأرملة باستيان دى شارترو وابنها صائب الرأى، الرصين.. وكيل والى المقاطعة».

يمكننا أن نستشعر، من خلال أسلوب هذا المقال، انعكاسا واضحًا للسخط الذى أثارته هذه القضية لدى الرأى العام فى ذلك الوقت. كيف انتهت هذه القضية، التى تبدو مخيفة، حيث إدانة السيدة باستيان وولدها ومسئوليتهما الجنائية عنها واضحة جلية، إلى الإفراج عن المتهمين وتبرئتهما؟

هذا ما سوف نفهمه دون شك عند قراءة ما سيلى.

* * *

الفصل الأول

تلقى النائب العام لمدينة (بواتييه) فى الثانى والعشرين من شهر مايو عام 1901 رسالة من مجهول، مؤرخة فى التاسع عشر من الشهر ذاته وهذه فحواها:

السيد النائب العام

أتشرف بالتوجه لسيادتكم للإبلاغ عن واقعة شديدة الخطورة. الأمر يتعلق بآنسة محبوسة فى منزل السيدة (باستيان)، محرومة جزئيا من الطعام، راقدة على فراش متعفن وسط قاذوراتها منذ خمسة وعشرين عامًا.

قام مفوض شرطة مدينة (بواتييه)، بعد وصول هذه الرسالة، وبناء على تعليمات من النائب العام، بالتوجه إلى المنزل القائم فى 21 شارع لافيزيتاسيون، وذلك فى الساعة الثانية والنصف من يوم 23 مايو.

قامت إحدى الخادمات اللاتى يعملن عند السيدة (باستيان) وتدعى (دوبوى) بالرد على جرس الباب.

– السيدة (باستيان)؟

– السيدة لاتستقبل أحدًا، فهى طريحة الفراش.

– أبلغى الأرملة (باستيان) من فضلك أننى مفوض الشرطة وأرغب فى الحديث إليها للضرورة.

صعدت الخادمة إلى الطابق الأول وعادت بعد عدة لحظات لتقول:

– سيدى، السيدة ترجوك أن تتوجه بالحديث إلى ولدها الذى يقطن أمامنا. ذهب السيد مفوض الشرطة إلى المنزل المقابل، وهو منزل السيد (بيير باستيان) وقرع الباب، ولكن قيل له بداية إن السيد (باستيان) متوعكًا هو أيضًا.

قال مفوض الشرطة: أمر غريب حقًا أن يكون الجميع متوعكًا فى هذين المنزلين. أخبر سيدك أننى مفوض الشرطة وأننى أريد إطلاعه على أمر مهم.

من ثم قام السيد (بيير باستيان) باستقبال مفوض الشرطة، فقال له:

– هناك رسالة من مجهول تتهم والدتك بحبس شقيقتك (ميلانى) منذ خمسة وعشرين عامًا فى فراش عفن وسط قاذورات كريهة. وتضيف هذه الرسالة، أن نوافذ غرفتها مغلقة بالأقفال فى الواقع، تبينت عند وصولى بالقرب من المنزل أن هناك شباكا بالطابق الثانى مغلقًا.

فهلا سمحت لى بمقابلة شقيقتك؟

– سأل السيد (باستيان): ومن أنت؟

– أنا مفوض الشرطة، لا بد وأن خادمتك أخبرتك بذلك.

– أجاب السيد (باستيان): إن كل ما روى لك هو فرية بشعة لا أساس لها من الصحة. علاوة على ذلك، أنا أجهل كل شيء عن تلك القصة؛ فوالدتى وشقيقتى تسكنان معًا فى منزل آخر. ولما كنت أحترم إرادة والدتى التى تحرص على أن تكون السيدة فى منزلها فإنى لا أتدخل فى أمورها.

قاطعه مفوض الشرطة قائلًا: أيًا ما كان، أنا حريص على الاطلاع على الوضع بنفسى. وأفضل طريقة لتبرئ بها ساحتك، سيدى، هى أن تدعنى أقابل شقيقتك وأتحدث إليها.

– لا أستطيع أن أسمح لك برؤيتها قبل استدعاء الطبيب، فهو وحده القادر على القول بأن زيارتك لغرفتها لا ضير فيها، فشقيقتى مصابة بحمى خبيثة منذ أكثر من عشر سنوات ويجب ألا تستقبل أحدًا.

قام السيد (باستيان)، مجيبا عن أسئلة مفوض الشرطة، بالإعلان عن عمره: ثلاثة وخمسون عامًا ومكانته: دكتور فى القانون ونائب مدير شرطة سابق. كما أفصح عن عمر شقيقته (ميلانى): اثنان وخمسون عاما.

لم يكن للسيدة (باستيان) أبناء آخرون. وأضاف (بيير باستيان) أن شقيقته لم تكن يومًا موضع إهمال؛ فقد كان يذهب لرؤيتها عدة مرات يوميًا. و اعتراضا على الاتهام الموجه لوالدته قال بأنه سيرفع الأمر إلى السيد النائب العام.

عندئذ لفت مفوض الشرطة انتباهه إلى أن أفضل وسيلة لدحض هذه الوشاية هى السماح له دون تراخٍ بزيارة غرفة الآنسة (باستيان)، وكان قد لاحظ من الخارج أن إحدى النوافذ بالطابق الثانى مقفلة بسلاسل حديدية، وهو الأمر الذى يعطى شيئًا من المصداقية للتهم الواردة فى الرسالة مجهولة المصدر.

بدا (بيير باستيان) مستعدًا للموافقة على الزيارة، ولكن كان يجب عليه أولا الحصول على موافقة والدته التى كانت صاحبة كل قرار فى بيتها. وعلى ذلك توجه بصحبة مفوض الشرطة إلى منزلها. ترددت السيدة (باستيان) طويلًا، ثم امتثلت للأمر فى النهاية أمام إلحاح مفوض الشرطة.

يقول مفوض الشرطة: «اصطحبنا السيد بيير باستيان» إلى الطابق الثانى حيث غرفة تضيئها نافذة واحدة مطلة على الفناء. وجدنا أنفسنا فى مكان شبه مظلم، هوائه فاسد لدرجة دفعتنا إلى مغادرة المكان على الفور، ولكن بعد أن تبينا أن هذه النافذة مغلقة بإحكام بواسطة سلسلة حديدية بها قفل، وأنها مزودة بحشيات من اللباد تسد كل المفضلات «دلفنا مرة أخرى إلى الغرفة وحاولنا فتح النافذة لتجديد الهواء ولكن منعنا السيد (باستيان) قائلًا إن ذلك سيضايق شقيقته.تبيننا كذلك أن شقيقته البائسة، التى كنا بالكاد نراها، راقدة على فراش قذر وفوقها غطاء... وكان كل شىء فى حالة من القذارة المنفرة؛ ففوق هذا الفرش كانت تجرى الحشرات من كل نوع والديدان التى تتغذى على الفضلات البشرية التى تغطى سرير هذه المسكينة، حاولنا الكشف عن وجهها

ولكنها كانت تتشبث بغطائها الذى كان يلفها بالكامل، مطلقة صرخات حادة وكأنها كائن همجى».

«ولما كان يستحيل علينا البقاء فى الغرفة، التى كانت كلها فى حالة من القذارة المنفرة، انسحبنا وشرعنا فى استجواب الخادمتين....»

قام قاضى التحقيقات السيد (فرنيل) فى اليوم ذاته بزيارة الغرفة فى الساعة الخامسة. وبعد المعاينة الأولية التى تطابقت مع معاينة مفوضى الشرطة أضاف:

«أعطينا على الفور أمرًا بفتح النافذة. تمت هذه العملية بجهد جهيد حيث سقطت ستائر قديمة ذات لون داكن مطلقة سحابات كثيفة من الغبار. أما عن النافذة، فكان لا بد من رفع مفصلاتها من الجانب الأيمن للتمكن من فتحها».

وبمجرد دخول الضوء إلى الغرفة أبصرنا فوق الفراش جسدًا ورأسًا مغطيين بأغطية متسخة بشكل منفر... كانت سيدة قدمها (بيير باستيان) إلينا على أنها الآنسة (ميلانى باستيان) شقيقته... كانت تلك البائسة راقدة عارية تمامًا على فراش بالٍ متعفن، وحولها تكونت طبقة أو قشرة من الغائط والبراز وبقايا اللحم والخضراوات والسمك والخبز.... الكل فى حالة من التفسخ والتحلل.

رأينا كذلك قشرة محار وكائنات غريبة تجرى على سرير الآنسة (باستيان) التى كانت هى ذاتها مغطاة بالطفيليات.

حاولنا التحدث إليها؛ كانت تطلق صرخات وتتقوقع فى فراشها محاولة تغطية وجهها أكثر وأكثر.

كانت نحافة الآنسة (باستيان) مرعبة، وكان شعرها يشكل ضفيرة سميكة لم تمشط ولم يُزل تشبكها منذ وقت طويل.

«كان الهواء داخل الغرفة غير صالح للتنشق والرائحة المنبعثة من المكان نتنة وكريهة لدرجة استحال معها بقاؤنا أطول لإجراء معاينات أخرى».

قرر قاضى التحقيقات نقل الآنسة (ميلانى باستيان) على الفور إلى المستشفى الرئيسى. ولما لم يكن عليها أى ملبس أو أى نوع من الكساء، قاموا بلفها فى غطاء. أمر بعد ذلك بتطهير الغرفة قدر الإمكان. وعند الساعة السادسة كان الباب قد أقفل بالشمع الأحمر.

«يضيف قاضى التحقيقات: «وقبل مغادرة المنزل، قمنا بتفقد الغرف المأهولة منه. كانت قاعة الطعام مؤثثة بشكل لائق والمطبخ حسن الهيئة وكانت السلالم نظيفة. أما غرفة السيدة الأرملة فكانت فى حالة من الفوضى ولكننا لاحظنا أنها لم تكن قط قذرة؛ كان الأثاث بحالة جيدة، الفراش مريح وكانت المفروشات والأغطية فى غاية النظافة. أما السيدة (باستيان) الأم والبالغة من العمر خمسة وسبعين عامًا فكانت ترتدى لباس منزل بمربعات بيضاء وسوداء صغيرة؛ وكانت تعتمر غطاء رأس أبيض مزينًا بثنيات أنبوبية مقواة. كان كل شىء نظيفًا ومتقنًا؛ كان شعرها ممشطًا، باختصار كان مظهرها مظهر سيدة تعتنى بنظافتها الشخصية».

عاد قاضى التحقيقات فى اليوم التالى عند الساعة الثالثة إلى الغرفة بعد تطهيرها بعض الشىء، وذلك لإجراء بعض المعاينة التى منعته عفونة الغرفة من إجرائها فى اليوم الأول: كان قياس الغرفة خمسة أمتار وأربعين سم فى ثلاثة أمتار وأربعين سم، والنافذة متر وستون فى 98سم وكان الأثاث يشمل:

1) بالقرب من الباب، على اليمين، كومود دون جارور.

2) رفين من الخشب الأبيض موضوعين عن يمين ويسار مدفأة من الرخام الأسود. توجد على الرف الأيمن أربع زجاجات فارغة، ثلاث علب طعام، لعبة ورق. أما الرف الأيسر، الذى كان مسدلًا عليه نسيج من قماش المراتب ممزق إربًا، فلم يكن فوقه شىء على الإطلاق، وكانت أركانه مغطاة بشباك عنكبوت سميكة فوق المدفأة كان يوجد تمثال صغير للسيدة العذراء.

3) سريرًا حديديًا وضع أمام الكومود فوقه أغطية وملاءات نظيفة، كان مخصصًا لنوم إحدى الخادمات.

4) أمام الرف الأيسر أخشاب من فراش صغير مغطى بقش وأثواب قديمة رثة شديدة الاتساخ.

5) هيكل أريكة وضعت فوقها خرق وقصاصات مملوءة بالديدان والحشرات.

6) ستة كراسٍ من القش، أربعة منها فى حالة جيدة.

7) وأخيرًا السرير الخشبى الخاص بالآنسة (باستيان) ويحتوى على مرتبة فى حالة تعفن، وملاءة مطبقة أربع ثنيات لاستقبال البراز، وسادة قديمة، موضوعة بين الملاءة والمرتبة وغطاء فى حالة من الاتساخ الشديد. كان الفراش مغطى بطبقة من الفضلات البشرية وبقايا اللحم والخضروات والخبز فى حالة من التحلل.

أمام الفراش، كانت هنالك قطعة من مشمع الأرضية فى غاية الاتساخ. وكانت أرضية الغرفة متآكلة. وبالقرب من الحائط، تبينا فتحة طولها 32سم وعرضها 5سم، وفتحة أخرى بارتفاع السرير تسمح للفئران بالتحرك ذهابًا وإيابًا.

كان يوجد بين الفراش والرف الأيسر صندوق صغير مملوء بالكتب القديمة تعلوه مثل باقى الأثاث طبقة سميكة من الغبار والأتربة.

كانت النجود قد اختفت تمامًا. وكانت الحوائط تبدو فيما مضى مغطاة بورق حائط رمادى، أزرق ذى مربعات بنية وزرقاء اللون.. بدت الآن منزوعة تمامًا. وكان العديد من العبارات المكتوبة مازال من الممكن ـ رغم ذلك ـ قراءة إحداها:

«صنع الجمال، لا شىء من الحب أو الحرية. الوحدة دائمًا. لا حتم من العيش والموت فى هذا السجن إلى الأبد».

وفى يوم الخامس والعشرين، الساعة التاسعة صباحًا بدأ مفوض الشرطة فى مصادرة الأغراض التالى ذكرها:

«لحاف متعفن جزئيًا ووسادة مطابقة له وأجزاء أخرى من خرق بالية تتشابك فيما بينها بفعل وجود بقايا البراز وفضلات الطعام من كل

نوع، والكل مختلط بكمية كبيرة من الحشرات (تم جمع كل ذلك فى ملاءة بيضاء أقرضتنا إياها الأسرة)؟ وكذلك غطاء لونه أبيض مقلم بالأحمر؛ وغطاء أصفر اللون كان يلف الحبيسة؛ بالإضافة إلى وسادة وغطاء مقلم بالأزرق؛ وقطعة قماش مغسولة حديثًا؛ وغطاء سرير ذى أرضية بيضاء ونقوش زرقاء؛ وغطاء آخر قديم مقلم باللون الأحمر؛ وقماش مراتب موضوع على النافذة كهيئة ستار؛ وقطعة من غطاء مقلم بالأخضر؛ وقطعة قماش قديمة كانت توضع تحت الآنسة (باستيان)؛ ومفرش أبيض ملطخ بالغائط؛ وملاءة سرير مطبقة ثمانى طبقات كانت ترقد فوقها الضحية؛ جريدة تحتوى على بقايا أطعمة، وجريدة أخرى كنا قد أحضرناها معنا، بقايا طعام من نوع آخر (جمعناها فى ورقة) كانت قد وقعت من فوق السرير عند إجراء عملية المصادرة... تم وضع كل هذه الأشياء السالف ذكرها فى صندوق لنقلها».

كانت هنالك أيضًا مرتبة متعفنة جزئيًا تم لفها فى قطعة قماش للتغليف؛ وفرش السرير وكانت قد تمت تجزئته على خمس لفائف؛ ومغلقا نافذة متشابكان بواسطة سلسلة حديدية بها قفل؛ وحقيبة كبيرة كنا قد وضعنا بها سبعة وثلاثين كتابًا وجدت على الأرفف فى الغرفة؛ وحقيبة مدرسة تحتوى على عدد من الكراسات وكمية كبيرة من الملحوظات المدونة بالقلم الرصاص؛ وفى الحقيبة ذاتها وضعنا أيضًا جزءًا من سلسلة حديدية معلق بها قفل، وتمثالين صغيرين للسيدة العذراء، ورأس عروس قديمة، ومسبحة، وقطعة نقود من فئة عشرة سنتم بالإضافة إلى بقايا خمسة أقلام رصاص وجدت فوق وتحت الفراش.

تم كذلك الحجز على باب الغرفة الخاصة بالضحية والذى تم إصلاحه أخيرًا وإطار ذلك الباب؛ ووعاء زجاجى يحتوى على حشرات تمثل نحو من 5 إلى 10٪ فقط من أنواع الحشرات التى وجدت على فراش (ميلانى باستيان) (*).

من الأشياء المحرزة أيضًا غطاء أبيض اللون، وقطعة من ورق الحائط الخاص بالممر وكتب عليه الكلمات الآتية: «من بين الأبناء هناك من هم أكثر تفضيلًا: إلخ، إلخ... وأخيرًا ضفيرة من شعر الآنسة (ميلانى باستيان) تزن نحو 2كجم و70 سم كان قد تم قص هذا الشعر عند وصولها إلى المستشفى المركزى».

إن كان تعداد هذه الأشياء قد بدا طويلًا بعض الشىء، فإننا لم نخش نقله هنا كاملًا بل نأسف لكونه ما زال غير واف... فكنا مثلًا نرغب فى التعرف على عناوين الكتب السبعة والثلاثين التى تمت مصادرتها، وكذلك طبيعة الملاحظات المكتوبة بالقلم الرصاص التى أوردنا ذكرها فى هذا التقرير.

(*) ركزت الصحف فى ذلك الوقت بشكل كبير على تنوع وكثرة وبشاعة الديدان التى كانت ترعى على فراش (ميلانى باستيان). كان من السهل التصديق بأن جميعها تمثل فصيلة من الحشرات غير المعروفة. وفى الواقع، تمكن البروفيسير (ليجي)، الأستاذ بكلية طب مدينة (بواتييه) ومدير مختبر علم الجراثيم، من التعرف مباشرة على طبيعة الحشرات واليرقات المجمعة داخل وعاء زجاجى مملوء بالفورمول (مطهر قوى)، فتبين أن جميعها ينتمى إلى فصيلتين:

١) الحشرات الأطول حجمًا وهى تبدو كديدان صفراء: وهى يرقات الـ (تينيبريون) من فصيلة الحشرات مغمدات الأجنحة، المعروفة بشكل شائع تحت اسم «دودة الدقيق».

٢) حشرة أخرى من مغمدات الأجنحة (دودة أو عُثَّة) تعيش عادة فى غرف الخدم وتتغذى على بقايا الطعام من كل نوع.

كنا قد استطعنا فيما سبق ملاحظة بلاغة الأشياء التى تمت مصادرتها من الغرفة الصغيرة فى منزل (إيباتياف) بقضية (إيكاتيرانبور)(*) على سبيل المثال، وذلك فى رواية الجنرال (ديتيريكس).

إن كل هذه الأشياء المحرزة هى بمثابة شهود، وشهادتها على الأحداث لا تقل أهمية عن شهادة الأحياء من الشهود الذين ستتعرف فيما يلى على أقوالهم. ولكننا سنسمع فيما يلى أولاً أقوال المتهمين.

* * *

(*) الكونت (كوكوفتزوف): الحقيقة حول مأساة (إيكاتيرانبور)، فى جريدة «دوموند»، الأول من أكتوبر ١٩٢٩.



الفصل الثانى

تم إيقاف السيدة (باستيان) وولدها بعد ظهيرة يوم الرابع والعشرين من شهر مايو. سنعرض فيما بعد جميع المعلومات التى حصلنا عليها حول هاتين الشخصيتين المحيرتين. فلنر أولا ما قاله (بيير باستيان) عند استجوابه (جلسة الثامن من أكتوبر 1901. ارجع إلى جريدة (لواست) بتاريخ العاشر من أكتوبر).

ـ تبين للدكتور (جيرينو) بداية من عام 1875 أن شقيقتك (ميلانى) غير قادرة على التصرف بشكل طبيعى. كانت غرفتها غير نظيفة وملبسها غير لائق كذلك. وكانت السيدة (فازى) التى توفيت فى عام 1896 تقوم على خدمتها ورعايتها.

ـ هذا صحيح.

ـ ولما كانت حال شقيقتك تتدهور، رأت والدتك ضرورة فى عزلها عن الناس. وبعد وفاة السيدة (فازى) توافد عليكم عدد من الخادمات اللاتى كن يرفضن البقاء فى مكان كهذا. ما عادت شقيقتك تغادر

غرفتها ولكنها كانت تطلب حريتها، وظلت تطالب بها حتى وجدتها الشرطة حبيسة فى شهر مايو 1901.

ـ كل ذلك صحيح.

ـ وعند وصول مفوض الشرطة لمنزلكم قاومت فكرة دخوله إلى غرفة شقيقتك.

ـ كلا، أردت فقط الحصول على موافقة والدتى، لم أعرب عن أى إعتراض من جانبى.

ـ وعلى الرغم من ذلك، ادعيت أن شقيقتك مصابة بحمى خبيثة. ولوحت بمركزك الاجتماعى وألقابك التى كنت تحملها فى السابق.

ـ لم يخطر على بالى قط أن أمنع السيد مفوض الشرطة من الدخول.

ـ أمر القاضى بقراءة محضر المعاينة والضبط.

ـ ألست منفعلا بما سمعت؟

ـ هالنى ما سمعت، ولكننى ما رأيت أبدًا غير ظواهر الأمور. فلعلمى أن (ميلانى) كانت عارية، كنت أتجنب النظر تجاهها، بدافع الحياء. لم أر قط غير شعرها.

ـ إذًا كل هذا الوضع جديد بالنسبة لك؟

ـ ولم أكن لأتصوره أو أفكر به فقط.

ـ عندما تم نقل شقيقتك إلى المستشفى المركزية أعربت عن سعادتها بعمليات التنظيف التى أجريت لها، وعن رغبتها فى تنشق هواء نقى كانت تقول: «كم هذا جميل»(*).

ـ خلال كل الوقت الذى بقيت فيه (ميلانى) عند والدتها كانت دائمة النفور من الضوء، ما كانت تتحمله؛ كان ذلك شيئًا من طباعها.

ـ كان يتوجب عليك أن تعرب عن إرادة لتغيير الوضع.

ـ كانت والدتى دائمًا هى الآمرة فى منزلها.

ـ خلال فترة وجودها بالمستشفى تبين للجميع أن شقيقتك تتحلى بحياء جم وطبع هادئ، فلماذا إذن كل هذه الإجراءات الوقائية؟

ـ يرجع تاريخ كل هذه الإجراءات إلى وقت بعيد. كان والدى هو أول من اتخذها.

ـ رأيت فى الملف أنكم ما كنتم تريدون فعل شىء ضد إرادتها (إرادة من؟ (ميلانى) أو الأم السيدة (باستيان)؟ الجملة بها شىء من الغموض.

ـ أجل، تفاديًا لنشوب مشاجرات عنيفة.

(*) ما لم يخبر به السيد القاضى هو أن (ميلانى باستيان) كانت تصرخ عندما أتوا لنقلها للمستشفى قائلة: «افعلوا ما شئتم ولكن لاتنزعونى من مغارتى الصغيرة العزيزة».

ـ ما كان يجب أن تنسوا أنكم تتعاملون مع عقلية مريضة؛ وهو سبب أدعى لشملها ببعض الرعاية التى تقبلتها، على كل حال، بكثير من الاستمتاع فى المستشفى المركزى.

ـ كنت قد وضعت ثقتى بالخدم.

ـ كانت تتم تغذية شقيقتك جيدًا. إذا كنا نستطيع أن نقول ذلك عن شخص نقدم له الطعام دون الحرص على معرفة إذا كان قد تناوله أم لا.

ـ كان هذا هو دور الخادمتين.

ـ هل كنت تذهب أحيانًا لزيارة شقيقتك؟

ـ أجل، وكنت أحاول التسرية عنها(*)، غير أن التحدث معها كان أمرًا صعبًا.

ـ وماذا كانت تقول فى لحظات صحوها؟

ـ للإجابة عن هذا السؤال لا أستطيع إلا أن أقول إننى طلبت مرارًا من والدتى إدخال شقيقتى مصحة علاجية. كنت أجلس بالقرب من نافذة غرفتها وأقرأ جريدة (لافين).. ولم تزعجنى الرائحة قط.

(سنعود مرة أخرى فيما بعد لهذا التأكيد الأخير. توالت بعد ذلك الأسئلة والأجوبة التى كرر فيها (بيير باستيان) مرارًا أنه لم ينتبه قط للحالة المزرية ومستوى الإهمال الذى وصلت إليها شقيقته).

(*) تبين فى تحقيق آخر أن (بيير باستيان) كان يذهب كل يوم لرؤية شقيقته ويقضى معها وقتًا طويلًا إلى حد ما.

ـ تقول بأنك طلبت من والدتك وضع شقيقيتك بمصحة علاجية، فلماذا لم تتدخل للتصرف حيال ذلك؟

ـ أصررت مرارًا على موقفى هذا حتى إن والدتى قامت بطردى من المنزل.

ـ كيف كانت علاقتك بوالدتك؟

ـ كنت أحمل لها احترامًا كبيرًا من ابن لوالدته، غير أن العلاقة بيننا كانت دائمًا تشوبها الصراعات. سواء كان ذلك بسبب المصالح أم بسبب موضوع شقيقتى.

ـ كنت تطيع والدتك وتخضع لها ولكن أليس هناك بعض الأمور الشائكة؟

ـ صدرى يتسع لكل شىء، وكنت أترفع عن كل الأمور الشائنة.

ـ وردًا على سؤال من السيد القاضى، أجاب (بيير باستيان) أن حاستى الشم والنظر عنده ضعيفتين حتى إنه ما كان ليتعرف إلى أصدقائه إذا ما قابلهم بالطريق.

ـ وعلى الرغم من ذلك، كنت تمارس الكتابة وتقوم بالرسم وفقًا لنماذج طبيعية.

ـ الفرق واضح جدًا فى رسوماتى بين ما أرسمه والطبيعة.

ـ يوجه إليك اللوم لأنك لم تحاول أن تضع حدًا لمعاناة شقيقتك. هل أردت لها أن تظل هكذا تعانى فى ذلك المكان القذر؟

ـ أبدًا لم أكن أحمل لشقيقتى غير المحبة والإخلاص.

انتهى الاستجواب عند هذه الجملة.

كان قاضى التحقيقات قد أمر بمصادرة بعض الأشياء من مكتب السيد (باستيان) وتسليمها إلى قلم المحكمة بالإضافة إلى الأشياء التى تمت مصادرتها من غرفة (ميلانى باستيان).

كانت هذه الأغراض بمثابة وثائق إثبات وهى كالآتى:

1) كراسة مقواة بالكرتون تحمل العنوان التالى: «معونات مصابى الحروب- اللجنة المركزية بباريس- قائمة الجنود المصابين الذين طلبوا معونة من هيئة الصليب الأحمر والقاطنين بمدينة (بواتييه) أو محافظة (لافيين)».

2) مجموعة من المستندات الموضوعة داخل ملف أخضر كتب عليه: «جمعية سان فنسان دى بول».

3) ست وخمسون لوحة رسم بالألوان المائية خاصة (ببير باستيان) داخل ملف أخضر.

4) أربع وخمسون لوجة رسم بالقلم الرصاص والألوان المائية خاصة بالسيد (باستيان) محفوظة داخل ملف أخضر.

5) مشروع بيان عن الأشخاص المتوفين خاص بالسيد الكونت (دى تى)...

6) مذكرات المؤتمر الذى ألقاه (بيير باستيان) فى السادس عشر من شهر مايو 1896 حول إغاثة الجنود المصابين قبل اتفاقية جنيف وخلال حرب 1870.

7) ورقة من كراسة مدارس كانت توجد فوق مكتب السيد (باستيان) كتب عليها:

«نحرص أن نقدم لقرائنا المعلومات الدقيقة التى تبرز الحقيقة حول القضية التى شغلت مدينتنا وألقت بالمسئولية على أحد مواطنينا الشرفاء».

كانت هذه المقدمة مكتوبة بذات الخط الذى كتبت به كل المستندات المحرزة.

وعند استجوابه مرة أخرى، قال (بيير باستيان):

«إن العبارات المكتوبة على حائط غرفة شقيقتى، التى كانت تشغلها قبل عام (1882)... هذه العبارات الخاصة تحديدًا بقلب يسوع المقدس والسيدة مريم ليس لها أية أهمية. وعلى الرغم من ذلك أقر بأنها دليل على وجود أفكار دينية تدور بخلد شقيقتى، التى أعزوها إلى حالة من الهذيان. يجب أن أركز على فكرة أن شقيقتى لم تعرب لى قط عن رغبتها فى الترهب».

أما بخصوص العبارات الأخرى التى كتبتها (ميلانى باستيان) على حوائط الغرفة الأخرى التى شغلتها بعد عام (1882) (وهو تاريخ وفاة والدها السيد (باستيان الأب)، وهى تلك العبارات المتعلقة بالحرية والوحدة وتحديدًا عبارة: «يجب العيش والموت فى هذا السجن إلى الأبد» بصفة خاصة، أجاب (بيير باستيان) قائلًا:

تلك ظواهر نفسية لا أسعى لتفسيرها؛ وعلى كل حال، كنت أولى اهتمامًا ضئيلًا للعبارات المكتوبة على الحوائط، حتى إننى لم أكن قد قرأتها.

ـ بحسب أقوال بعض الشهود، كانت شقيقتك تطلق بصفة دائمة صرخات ونداءات يتبين السامع من خلالها بشكل واضح كلمات مثل «الشرطة» العدالة، الحرية «و» «السجن».

السيد (جاكوب) مثلًا قد سمع فى يوم 16 أغسطس (1892) العبارات الآتية: ((ماذا جنيت حتى يتم حبسى؛ إننى لا أستحق هذا التعذيب البشع. لماذا يترك الله مخلوقاته تتعذب هكذا؟،

ألا يوجد من يأتى لنجدتى؟!

ـ كل هذا الصراخ لا معنى، وكل هذه الكلمات على لسان شقيقتى لا قيمة لها على الإطلاق؛ فهى لا تنطق بها إلا من أوقات الأزمات ونوبات الجنون التى كانت تصيبها. لم تطلب قط فى حضورى لا النجدة ولا طالبت بحريتها. لاحظت فقط أنها تستخدم عبارات بذيئة وخاصة الكلمة البادئة بحرف «مـ.....» وسط غمرة ثورتها.

كانت تبدو وكأنها توجه حديثها إلى كائن خيالى، وكان من المستحيل ردها إلى العقل والمنطق... فكلما تحدثنا إليها، زادت ثورتها.

ـ وكيف تفسر بأن هذه الثورات المفرطة والهياج توقفوت تماما منذ دخولها المستشفى المركزى لتحل محلها الرقة والدعة اللتان لا يختلف عليهما أحد؟

ـ ربما تسبب الانفعال الشديد الذى تعرضت له فى حدوث الشفاء وسط كل هذا الجنون.

سُئِلَ السيد (بيير باستيان) كيف أن زوجته لم تر أبدًا شقيقته منذ زواجها من عام (1874) وكيف أن ابنته لم تر هى أيضًا عمتها قط، فأجاب:

ـ كان ذلك لدواعٍ أخلاقية دفعت والدتى لمنع زوجتى وابنتى من رؤية شقيقتى التى كانت تتفوه بعبارات فى غاية البذاءة. وافقتُ والدتى الرأى إلى حد ما ولم أصر على عكس ذلك.

وعند استجواب ابنة (بيير باستيان)، (مارى دولوريس باستيان) قالت بدورها: (كنت أذهب إلى منزل جدتى مرتين فى الأسبوع، يومى الخميس والأحد عند الساعة الثالثة تقريبًا. ولم تكن تستقبلنى عادة؛ وعندما كانت تفعل كانت المحادثة بيننا تفتر بسرعة. كانت تحدثنى فقط عن المشكلات التى كانت تواجهها مع الخدم وعن أمراضها. ولما لم أكن معتادة على تلقى أى ملاطفة من جانبها، كان يصيبنى شلل تام فى حضورها ولم أكن أتفوه بالكثير. فكانت المقابلة معها تدوم نصف ساعة تقريبًا وأنصرف بعد أن أسأل (عندما أتذكر ذلك) عن أخبار عمتى (ميلانى)، فكانت جدتى تجيبنى دائمًا: «إنها بخير»).

فلنر الآن أقوال السيدة (باستيان) الأم.

«لم أفكر قط فى حبس ابنتى التى كنت أحبها جدًا. كانت دائمًا تنعم بحرية التحرك فى المنزل كيفما شاءت، ولكن يجب أن أقول بأنها حبست

نفسها بكامل إرادتها منذ خمسة وعشرين عامًا فى غرفتها؛ بل أضيف: فى فراشها، حيث إننى أعتقد أنه منذ عام 1876 أو حتى قبل ذلك أصرت بتشبث على البقاء فى فراشها برغم الجهود التى بذلناها أنا وزوجى لحملها على تنشق الهواء. كانت دائمًا معتلة الصحة. وعلى الرغم من ذلك تمكنت من إنهاء دراستها. كانت تحب العمل وخاصة القراءة. وعندما كانت شابة يانعة، كانت قليلًا ما تختلط بالناس. كانت تفضل زيارة الكنائس، وأعتقد بأنها كانت تميل من داخلها إلى حياة الرهبنة. ما كانت تخطط أبدًا لأى مشروع زواج بل أعتقد أنها ما كانت ستقبل أبدًا بالزواج».

«وفى عام 1872 على ما أعتقد، أصيبت ابنتى بحمى خبيثة شديدة الخطورة هددت حياتها. ومنذ ذلك الحين، ترفض مقابلة أى شخص. غير أنها ذهبت ذات مرة إلى (مون دى مارسان) لحضور زفاف شقيقها الذى تحبه جدًا. وبعد عودتها إلى (بواتييه) ظلت منغلقة على ذاتها فى غرفتها بشكل دائم؛ وكانت ترفض وضع الملابس عليها بحجة أنها كانت تقوى على تحملها فوق جسدها لشدة ضعفها. كانت تأكل القليل جدًا وكانت شديدة النحافة.

لم تكن قط مجنونة، ولكن كانت لها تصرفات شديدة الغرابة؛ فكانت مثلًا ترفض النوم على ملاءات، وترفض الملابس... لم تكن ترضى إلا بغطاء يغلفها تمامًا».

«لم يأت الطبيب لفحصها منذ عدة سنوات، ذلك أنها لم تكن مريضة».

وعندما وصفنا لها الحال التى وجدنا ابنتها عليها، أجابت بأنها مريضة منذ ثلاثة أشهر، وهو الشىء الذى منعها من الذهاب لرؤية ابنتها. وكانت قبل ذلك تذهب مرتين يوميًا لزيارتها؛ واعترفت برؤيتها بكل القذارة التى كانت عليها، غير أن (ميلانى) كانت ترفض أن يلمسها أحد.

ـ طلب منك الخدم كثيرًا تغيير فراش ابنتك وتركهم يقومون بتنظيفها هى شخصيًا فكنت دائمًا ترفضين.

ـ هن كاذبات.. امرأتان وقحتان.

إذا كنت قد ارتكبت خطأ فلم يكن ذلك قط بنية قتل ابنتى. لطالما ضحيت من أجلها.

تم إيداع السيدة (باستيان) السجن فى الساعة السادسة مساء يوم الرابع والعشرين من شهر مايو 1901، حيث تم على الفور نقلها إلى عيادة السجن.

كانت تبدو مريضة جدًا ومع ذلك احتفظت بشهية جيدة ولم تكن تتذمر كثيرًا. بدأت حالتها تتدهور من السادس من شهر يونيه. كانت تدفع ببراءتها وتطلب إطلاق سراحها محتجة بأن ولدها قد غادر السجن. قامت كذلك عدة مرات بحزم أغراضها برغم حالة الضعف والوهن التى أصابتها. كانت ليلة السابع من الشهر ليلة قاسية جدًا. طلبت المريضة أن تشرب الماء فى الساعة الخامسة من صباح ذلك اليوم. ولما لاحظت الممرضة القائمة على مراقبتها بدنو الأجل، أبلغت على الفور الشرطى المكلف بحراستها، الذى استدعى بدوره الطبيب والمرشد. جاء

الطبيب ليحضر إاحتضار المريضة، فبذل مجهودًا من دون فائدة لإنعاش السيدة (باستيان) التى أسلمت روحها فى هدوء نحو الساعة التاسعة والنصف.

وكانت السيدة (باستيان) قد صرخت قبل دقائق قليلة من وصول الطبيب قائلة: «آه! يا ابنتى (ميلانى) المسكينة!».

الفصل الثالث

وصلت (ميلانى باستيان) إلى المستشفى الرئيسى لمدينة (بواتييه) فى نحو الساعة السابعة من مساء يوم الثالث والعشرين من شهر مايو 1901.

أمامى الآن صورة كبيرة التقطت لها فور دخولها إلى المستشفى، وهى الصورة التى تناقلتها الدوريات والصحف المصورة المهمة فى ذلك العصر.

لا يستطيع الخيال تصور منظر أكثر تأثيرًا فى النفس من نظرة هذه الفتاة المسكينة وابتسامتها حيث كانت تبتسم ابتسامة ملائكية، بريئة ولكنها فى الوقت ذاته ابتسامة ماكرة وشبه ساخرة.

كانت فى حالة من عدم النظافة المنفرة والمخيفة بحسب ما خبر به الشهود فى ذلك الوقت. كان وجهها أبيض بياض الشمع وشديد النحول. الجسد ضامر بشكل يفوق الوصف وتغطيه فى بعض المناطق، طبقة سميكة من الوسخ، كانت أظافر اليدين والقدمين طويلة جدًا.

كان الشعر يشكل كتلة مضغوطة طولها يزيد على المتر وعرضها ثلاثون سم وسمكها من أربعة إلى خمسة سنتيمترات كان عبارة عن كتلة ملبدة مكونة من الشعر المتشابك المختلط بمواد برازية وبقايا الطعام.

كانت الرائحة المنبعثة من هذه الكتلة البشرية شديدة البشاعة إلى درجة حملت الأطباء على السماح للأشخاص الحاضرين بالتدخين. كانت كتلة الشعر منحرفة بالكامل تجاه اليسار، أما الجانب الأيمن من الرأس فما كان يحتوى إلا على بضع خصيلات متسخة ومستهلكة بفعل الاحتكاك الدائم الناتج هو أيضًا عن الوضع الذى ظلت (ميلانى باستيان) محتفظة به طوال الوقت، حيث كانت دائمًا راقدة على جانبها الأيمن فى الفراش ومتقوقعة على نفسها.

كان وزن (ميلانى باستيان) عند دخولها المستشفى إحدى وخمسين ليبرة وثلاثمائة. كان من المدهش أن استطاعت هذه الفتاة المسكينة أن تحيا كل هذه السنوات فى الإملاق المنفر، فى بيئة عتمة، فاسدة وموبوءة لدرجة يشمئز لها أى شخص.

كانت (ميلانى) عند وصولها إلى المستشفى فى حالة من الضعف والوهن الشديدين لدرجة أن المرشد الدينى قام على الفور بعمل مسحة المرضى المباركة الأخيرة لها خشية انتهاء أجلها سريعًا. غير أن حالة (ميلانى) بدأت فى التحسن بشكل ملحوظ منذ اليوم التالى لدخولها المستشفى. وكانت تقبل طواعية الطعام الذى يقدم إليها. وأكد الأطباء الذين تم استدعاؤهم لفحصها بأن جميع أجهزة جسمها تعمل بكفاءة تامة.

وكانت (ميلانى) تجيب بشكل مرضٍ عن بعض الأسئلة البسيطة والدقيقة التى كانت تطرح عليها. وكانت تستطيع التعرف على الزهور التى تقدم إليها. وتذكرت بضعة أشياء من فترة شبابها وبصفة خاصة منزل تملكه عائلتها فى منطقة (مينيه). لكنها كانت ترفض فى أغلب الوقت الإجابة عن الأسئلة وتحاول التخلص من الأشخاص المتوجهين إليها بالحديث، محاولة صرفهم عنها عن طريق التفوه بالكلمات البذيئة والشتائم.

وإذا أصر أحدهم على الحصول على بعض الأجوبة منها، تدخل سريعًا فى حالة من الثورة ويتحول سكونها المعتاد إلى حالة من الهياج العنيف. غير أن ضعفها العام كان يمنعها من الإتيان بأى تصرف جسدى، فكانت تكتفى بالهمهمة وإخفاء وجهها فى وسادتها.. كانت تهمهم بكلمات غير مفهومة وعبارات غير مميزة مختلطة بالكثير من الشتائم.

وكانت الفكرة التى تعود مرارًا للظهور عندما تغضب هى رغبتها فى العودة إلى منزلها وغرفتها التى كانت تعبر عنها بعبارة غير مفهومة بالمرة. حتى إنه عندما ذهبوا لإخراجها من سجنها فى غرفتها بشارع (لافيزيتاسيون) كانت تتشبث بفراشها وغطائها ذى الرائحة النتنة متوسلة للجميع أن يتركوها تعيش فى سلام وهدوء فى «مغارتها الصغيرة».

((تقول التقارير بأنها لم تكن قط تسأل عن أى شىء... ولم تأت أبدًا على ذكر الأشخاص الذين اعتادت رؤيتهم فى منزلها. وكانت فى أغلب الوقت لا تجيب إلا على اللاتى يقمن برعايتها بشكل يومى ويقدمن لها الطعام:

كانت كل إجاباتها ذات طابع طفولى. وكانت تتعرف على معظم الأشياء التى يحملونها إليها: أقلام، زهور، أكواب، أطعمة وتطلق على كل ذلك دائمًا.. قلمى العزيز الصغير»، «وردتى العزيزة الصغيرة»... إلخ. حتى إنها كانت تطلب مرارًا «منديلها العزيز الصغير»، والذى كانت تغطى به رأسها خلال إقامتها فى منزلها، وكان مملوءًا بالقاذورات والحشرات.

«لم تكن لديها أية فكرة عن إجراءات النظافة الشخصية، وكانت تقضى حاجتها فى الفراش أو فى الملابس التى ترتديها... وبالرغم من ذلك بدأت اعتبارًا من يوم الثامن عشر من شهر يونيو أن تقبل باستخدام المبولة».

«تمكن القائمون عليها عندئذ من حملها على استخدام قلم وريشة لكتابة اسمها وبضع كلمات. كانت الكتابة واضحة إلى حد ما، ولكنها كانت تتبع كلمة مكتوب جيدًا بخطوط رديئة غير واضحة المعالم».

«كانت شهيتها ممتازة. فكانت تلتهم بشراهة الأطباق التى تقدم لها. وكانت الوجبات التى تجهز عليها وفيرة. (وفى الواقع، بينت عملية الوزن المتكررة التى أخضعت إليها (ميلانى) زيادة سريعة جدًا فى وزنها الذى تبدل من 25 كجم ونصف الكيلوجرام فى الخامس والعشرين من شهر مايو إلى 35 كجم فى الثالث من شهر أغسطس».

كانت قواها البدنية كذلك تزيد ازديادًا نسبيًا... غير أن قدراتها العقلية كانت بعيدة كل البعد عن مواكبة هذا التحسن المتصاعد. من الصحيح أن (ميلانى) كانت تجيب بشكل أفضل على بعض الأسئلة، ولكنها ظلت غير عابئة بالأمور المحيطة بها ولم تكن تطرح أى تساؤلات.

كان القس (دى مونديون) المرشد الدينى بالمستشفى المركزى يأتى للتحاور معها بين الحين والآخر. سألها إن كانت تذكر مناولتها الأولى للقربان، فأجابته (ميلانى) بالإيجاب، حتى إنها استطاعت أن تذكر له أسماء القساوسة الذين قاموا بتلقينها أولى معلوماتها الدينية. كانت تستطيع كذلك تذكر أسماء التجار الذين كانوا يقومون بتوريد السلع لعائلتها، مؤكدة أنها لم تكن تشترى الحلوى من عند الحلوانى (أفينيل) وإنما من عند التاجر الإيطالى (بازينو) كانت تستطيع التعرف على أجناس الزهور التى تقدم إليها وتذكر أسماء كل منها. كان بعض فاعلى الخير من ذوى القلوب الرحيمة يأتون لها يوميًا بالعديد من باقات الزهور.

يضيف القس فى شهادته أن لا شىء كان يسعدها أكثر من رؤية هذه الزهور وتنشق عبيرها. وكانت شديدة السعادة لرؤية المزارع من مكانها بالفراش، وكانت تعلن عن سعادتها تلك بقول: «آه ! كم هذا جميل!». وعندما كان طائر السنونو يمر كانت تتعرف على صوته وتصرخ: «آه! أرأيتم! السنونو اللطيف الصغير».

كانت تتصرف برقة متناهية وتستمع لمن يتحدث إليها، وتفعل كل ما تؤمر به أو يطلب منها. وكانت تحتفظ بملابسها على جسمها دون البحث عن خلعها.. حتى إنه كانت تكفى ممرضة واحدة فقط لمراقبتها. وعندما كانت تترك وحدها (حدث ذلك مرارًا) ما كانت تثير أى فوضى. ولكن عندما سألها القس إذا كانت تريد رؤية أخيها ووالدتها، أجابت (ميلانى) على الفور: «آه! لا تحضروهم إلى هنا!».

وعندما سألها القس مرة أخرى إذا كانت تشعر بالراحة فى منزلها القديم، صرخت (ميلانى): «دعنا لانتحدث عن ذلك، إنه منزل يقضى على كل شىء، يقضى على كل شىء».

لا أجد نفسى مضطرًا إلى إبراز التعارض العجيب فى إجابات (ميلانى باستيان)، فسوف يتبينه القارئ من تلقاء نفسه. نبذل عادة جهدًا، عن وعى أو عن غير وعى، خلال التحقيقات والاستجواب لمصالحة الشخص المستجوب من نفسه وتقليص حجم هذا التناقض، غير أن هذا الجهد يذهب سدى، وبصفة خاصة فى حالة (ميلانى باستيان) التى كانت تبدو فى الوقت ذاته سعيدة لاستنشاق الهواء النقى أخيرًا والتمتع بنظافة سريرها فى المستشفى، والامتنان لكل هذه الرعاية التى تتلقاها؛ بينما تفتقد أيضًا فراشها المتعفن والظلمة غير الصحية لـ «مغارتها الصغيرة العزيزة»؟ التى كانت تتحدث عنها بكلمات رقيقة تدل على أنها كانت بخيالها أقرب إلى مكان خرافى تعبر عنه بطريقة غريبة، حتى إن من يسمعها لا يفهم عما تتحدث، حيث كانت تقول ولا تفتأ تردد: «أريد العودة إلى عزيزى الـ «ملامبيا» الكبير». ذلك المكان الذى لم تكن على ما يبدو تعامل فيه المعاملة السيئة التى ذهبنا للاعتقاد بها فى أول الأمر، حيث إنه عندما كان يقدم لها وجبة من الدجاج فى المستشفى، كانت تقول: «كانوا يقدمون ذلك إلىَّ أيضًا فى مكانى العزيز الـ «ملامبيا الكبير».

«يقول أحد الأطباء المقيمين: حضرت عدة مرات تقديم الوجبة إلى الآنسة (باستيان). كانت أول كلمة تنطق بها قبل أن تلمس ما يقدم إليها:

«هل هذا نظيف؟» وعلى الرغم من ذلك كانت تستخدم أصابعها لتناول الطعام ولكن بكثير من الرقى».

وقال أمين مخازن المستشفى:

«عندما كانت تتناول برتقال، كانت تعرف جيدًا كيف تحتفظ بالبذور فى قبضة يدها حتى يخلصها أحدهم منها...».

بدا لى أنها كانت تحاول، على الأقل دون وعى منها بذلك التآلف مع الأشخاص الذين يأتون لرؤيتها واستجوابها، أو حتى الجنوح إلى نوع من الود الغريزى تجاه الآخر.

كان ذلك هو ما دفع إحدى راهبات المستشفى المركزى إلى القول بأن (ميلانى) لم تكن قط تنفر من النظافة، بل كانت على العكس من ذلك تستمتع بعمليات التنظيف التى تجرى لها وبالرقاد فوق ملاءات بيضاء نظيفة وبارتداء قميص نوم. لم تكن تقول شيئًا عند قص شعرها، وهى كانت عملية غاية فى الصعوبة نظرًا لتلبد خصلات الشعر المتشابك. استمتعت بعد ذلك بتركهم ينظفون رأسها بماء معطر خاص.

«تضيف الراهبة، أن (ميلانى) لم تكن قط تحب الروائح الكريهة، بل كانت تستمتع برائحة الزهور وماء الكولونيا الذى كانوا ينثرونه فوق جسدها وعلى فراشها. كانت بصفة عامة تسعد بكل شىء فاتح اللون وتكره على العكس كل شىء قاتم. وهكذا كانت ترفض كل شىء لونه أسود، ورفضت ذات مرة أن تحتفظ فى إصبعها بخاتم أعطاها إياه أحد الأطباء المقيمين على سبيل الدعابة لمجرد أن الخاتم به حجر أسود اللون.

كانت تشعر بسعادة لتغيير ملابسها فى الصباح، وتقبل بسهولة انتعال خف. كان لا بد من الإصرار بعض الشيء لجعلها تلبس جوارب؛ ولكنى أضيف أن الصعوبة فى ذلك الأمر زالت سريعًا. وبمجرد أن كان يكتمل لباسها كانت تتأمل نفسها بكثير من الرضا وتتأمل بصفة خاصة الخيوط الحريرية التى تزركش مئزرها. كانت سعادتها غامرة وقالت: «هذا أجمل بكثير من أن أبقى به فى هذا المكان. سيكون من الأفضل أن أذهب به إلى ذلك المنزل الجميل العزيز... ذلك الـ «ملامبيا الكبير».

وهنا تضيف الراهبة: «كانت (ميلانى باستيان) تقصد بهذا دون شك الإشارة إلى تلك الملكية الخاصة بعائلتها فى منطقة (ميتييه) حيث كانت تأتى على ذكرها مرارًا.

ولكننا نعتقد بأن (ميلانى) كانت تقصد بهذه الكلمات -كما قلنا سابقًا- غرفتها القذرة أو على الأقل ذلك التحول الخرافى لهيئة هذه الغرفة فى خيالها».

تتابع الراهبة (سان ويلفرد) حديثها قائلة: «بمجرد جلوسها فى المقعد الوثير بجوار النافذة نظرت (فيلانى) إلى المزارع وقالت مثلما قالت فى الأيام السابقة: «كم هذا جميل» وكانت تلفت انتباهى أنا والحارس لمرور طائر السنونو ذاكرة اسمه».

كانت تتأمل بكثير من الاهتمام والسعادة الظاهرة ولفترات طويلة الصور والزهور التى كانت تحمل إليها، الأمر الذى يدعو إلى الاعتقاد بأن الآنسة (باستيان) حرمت من زمن بعيد من هذه المناظر.

«كان السرير الخاص بالآنسة (باستيان) موضوعًا فى مواجهة النافذة. بقى مصراعا النافذة مفتوحين منذ وصول (ميلانى) وكان الضوء والهواء يقتحمان الحجرة بشكل مكثف. لاحظت أنها كانت تريد فى بادئ الأمر إخفاء وجهها تحت الأغطية، فمن المحتمل أن الإضاءة الغامرة كانت تجهد عينيها، بما أنها لم تحاول إخفاء وجهها فى الأيام التالية، وكانت تكتفى برفع الغطاء أمام عينيها؛ وهى ما زالت تحتفظ بهذه العادة. غير أنه فى أغلب الأوقات، وخاصة عندما تتناول وجباتها يكون وجهها مكشوفًا تمامًا، ولم تطلب ولو لمرة واحدة أن يتم إغلاق النافذة أو مصراعى الشباك، مع العلم بأنها قادرة تمامًا على المطالبة بما يرضيها ويروق لها.

ولما كانت الآنسة (باستيان) معتادة على قضاء حاجتها فى ملاءاتها، وجدنا صعوبة فى إكسابها عادات أخرى، وعلى الرغم من ذلك تقول حارستها الخاصة (إميلى ريمون) إن الآنسة (باستيان) تحرز تقدمًا منذ الأسبوع الماضى وتخلصت شيئًا فشيئًا من عاداتها الأولى فتطلب منى إحضار المبولة خلال النهار لقضاء حاجتها وتستطيع الانتظار والتحكم عندما أكون منشغلة».

صدق الطبيب المقيم بالمستشفى على صحة أقوال الشهود وأضاف: «لاحظت مثلى مثل الكثير من الأشخاص الذين استمعوا إليها أنها كانت تتحدث كثيرًا بلهجة محلية، وأنها كانت تستخدم عبارات شديدة البذاءة.. فى البداية، كانت الآنسة (باستيان) تبدو متبلدة الذهن وكانت إجاباتها فى الغالب غير مفهومة؛ كانت تعانى من صعوبة فى تركيز أفكارها؛ ولكن منذ ثلاثة أو أربعة أيام (قبل ذلك يوم الثامن من يونيه) طرأ تغير ملحوظ

عليها. فأصبحت تعرف كيف تطلب بنفسها ما تريده كطعام لوجبتها. هذا الصباح أخبرتنى أنها تود أن تأكل: «الدجاج الصغير العزيز» و«الفراولة الصغيرة العزيزة» وقطعة من «حلوى اللوز بالسكر الصغيرة العزيزة» كتبت هذه القائمة من دفترى وقرأتها هى بعناية.

«يجب أن ألفت انتباهكم إلى أمر ربما لم يحدثكم به أحد؛ وهو أن الآنسة (باستيان) تأتى عادة قبل كل كلمة بعبارة «الصغير العزيز» أو «الصغيرة العزيزة». وقد بدأت عباراتها البذيئة فى الانحسار شيئًا فشيئًا من حديثها».

كانت تأكل بتلذذ فصوص البرتقال التى أعطاها لها هذا الطبيب المقيم. وكانت سعادتها غامرة عندما تقدم لها إحدى الراهبات القائمات على مراقبتها باقة من الورود المختلفة. عندئذ تظل تتأملها طويلا وتستنشق ملء رئتيها عبيرها مثلما قد يفعل أى طفل صغير، ومن ثم تقبل الباقة واليد التى تحملها إليها. وفى هذه اللحظة تقول بنبرة حازمة سريعة: «آه! كم سيكون جميلًا لو وضعنا باقتين مثلهما حول مغارة صغيرة يتوسطها تمثال صغير للسيدة العذراء. قد نفعل ذلك مرة أخرى» من الواضح أن صورة المغارة تسكن نفسها وكيانها وترتبط فى ذهنها بذكرى غرفتها الكائنة فى شارع (لافيزيتا سيون) أو ربما بفكرة خيالية أخرى... لا أدرى.

توفيت السيدة (باستيان) الأم، كما ذكرنا آنفًا، فى ليلة السابع من شهر يونيه. رأت مديرة المستشفى أنه من الواجب أن تخبر (ميلانى باستيان) بنفسها بهذا الحداد:

ـ عندى خبر حزين، يجب أن أعلمك به (آنسة ميلانى)، لقد توفيت والدتك.

ـ أجابت المريضة وهى تنظر بإشتهاء إلى وجبتها (كما جاء بجريدة لواست ليوم الحادى عشر من يونيه): أريد أن أستمتع، أريد أن أستمتع.

توجهت المديرة إليها بالحديث مرة أخرى قائلة: ولكن يا آنسة (ميلانى) اسمعينى جيدًا، قالت ذلك بنبرة غاية فى الحنو، عندما تعودين إلى منزلك لن تكون والدتك هناك.

ـ تبًا! تبًا! أريد أن أستمتع! أريد أن أستمتع!

وكانت هذه هى الإجابة ذاتها عندما تحدثوا معها عن ملابس الحداد التى يجب أن ترتديها، أو عندما أخبروها عن الحزن الذى قد يشعر به شقيقها (بيير) لهذا الخبر.

وفى يوم السابع عشر من شهر يوليو، أجابت (ميلانى باستيان) بهذا الشكل عن الأسئلة التى طرحت عليها:

ـ هل ستودين الإجابة عن الأسئلة التى سأطرحها عليك؟

ـ لا أريد الإجابة عن أى شىء.

ـ هل استقبلت زوارًا بالأمس؟

ـ بعض السيدات اللاتى يتحلين بزينة أخذت أتأملها.

ـ هل ذهبت للتريض فى الحديقة وهل لديك القوة لفعل ذلك؟

ـ كلا، لم أذهب.. سأذهب فيما بعد للتنزه فى الحديقة الصغيرة الموجودة بذلك المكان الجميل الواسع و بـ(مينيه) [فى منطقة (مينيه) توجد ملكية خاصة بعائلة (باستيان)].

ـ هل تتذكرين (جولييت دوبوى) و(أوجينيه تابو)؟

ـ لا أعرف ماذا أصبحن؛ أسفا لهن!

ـ هل تعرفين (كاركاسون) و (مونبلييه)؟

ـ كلها أماكن بعيدة جدًا.

ـ هل تتذكرين غرفتك فى «ذلك المكان البعيد»؟

هنا تصدر الآنسة (باستيان) أصواتًا غير واضحة يستحيل تفسير أو فهم ما تقول. ولكنها بدت غاضبة).

ـ هل كان شقيقك يقرأ لك الجريدة أحيانا؟

ـ يجب ألا يأتى إلى هنا؛ هو بخير حيثما كان.

ـ ألا تريدين رؤية أخيك؟

أجابت الآنسة (باستيان) وهى فى غاية الغضب: فليبق حيث هو.. هو بخير هناك.

نطقت الآنسة (باستيان) بتلك الكلمات بنبرة غاضبة قائلة: «إنها خطيئة، يجب عدم فعل ذلك».

ـ هل سيسرك رؤية زوجة السيد (بيير باستيان)؟

ـ لا أعرف ما حل بها، فلتبق حيث هى.

ـ هل ترغبين برؤية الآنسة (دولوريس باستيان) ابنة أخيك؟

ـ لا أعرف ما حل بها. أسفًا عليها؛ تبًا للجميع.

ـ هل تعرفين (مارى فازى)؟

ـ لا أعرف ما آلت إليه.

ـ ألا تعرفين أنها توفيت؟

ـ نطقت الآنسة (باستيان) ببعض العبارات غير المفهومة وبدت فى هذه اللحظة متعبة.

ـ كان التحسن فى حالتها الجسدية مستمرًا بسرعة كبيرة، أما العقل والإدراك فلم يعودا إليها.

ـ صرح الدكتور (لاجرنج) طبيب الأمراض العقلية بمدينة (بواتييه) «الآنسة (ميلانى) غير متمتعة بقواها العقلية، فهى تتفوه بعبارات غريبة ومخالفة للصواب وغير كاملة، فخلصنا إلى ضعف فكرى أصابها. إنها إنسانة مختلة عقليًا لا شك فى ذلك».

ـ وعلى العكس من ذلك اعترض القس (دى مونديان) المرشد الدينى للمستشفى المركزى بمدينة (بواتييه) على اتهام (ميلانى) بالجنون. فكتب فى جريدة (لويست): «أجد من غير اللائق أن هناك أناسًا يرغبون فى تبرير أو تبرئة المتسببين فى هذه الجريمة. أود كذلك

الإشارة إلى نقطة مهمة: تم اتهام الآنسة (ميلانى) بالجنون بغية تبرئة ساحة الجناة. وتم اتهامها بالشغف بتعرية جسدها. أود أن أقول إنها بقيت بيننا لأكثر من تسعة أيام فلاحظنا رغبتها فى تغطية نفسها لا العكس. وإذا اقترب أحدهم منها أكثر من اللازم تتقوقع على نفسها وتشد على جسدها الأغطية؛ فهى تتحلى بالحياء... باختصار من الأفضل أن نترك العدالة تأخذ مجراها بدلًا من البحث عن طمس جريمة منفرة.

قلت من قبل وما زلت أكرر أن كل من يترك غريبًا عنه أو ابنه أو أختًا فى تلك الحالة المزرية التى وجدنا عليها الآنسة (ميلانى) عند وصولها إلى المستشفى، هو بحق جانٍ، خاصة أن هذه الضحية تتسم بالرقة والهدوء والوداعة. كانت النوافذ مفتوحة أمامها ولم يصدر عنها قط أقل علامة على الجنون المختلط بالشر أو الخطورة.

وإذا كانت تمر بحالة من الانهيار البدنى والذهنى، فلا عجب فى ذلك بما أنها بقيت كل هذه السنين محرومة من الهواء النقى والنور والطعام.

سنحاول أن نقترب أكثر لنفهم هؤلاء «الجناة»: تلك الوالدة وذلك الأخ اللذين تم تقديمهما إلينا كأناس شرفاء؛ ماذا كانت دوافعهما لارتكاب هذه الجريمة؟

إن الشيء المثير للاهتمام فى هذه القضية هو ذلك الغموض الذى يلفها، والذى يزداد كلما اقتربنا أكثر من حقيقة الوقائع... ذلك الغموض الذى إذا انقشع من وجه الأحداث، تمركز حول الشخصيات، وبصفة خاصة شخصية الضحية أكثر من شخصية الجناة أو المتهمين.

سنحاول إذن أن نلقى على هؤلاء المتهمين بالضوء الكافى معتمدين فى ذلك على أقوال عدد من الشهود.

فى الواقع، لم تكن السيدة (باستيان) تشعر بأنها جانية لا هى ولا ولدها، وسنرى أنه فى نهاية المطاف ستخلص العدالة إلى الرأى نفسه. ولكن قبل أن نقدم السيدة (باستيان) الأم وولدها عن كثب، سنأتى ببعض المعلومات عن تاريخ عائلتهم.

* * *

الفصل الرابع

فى نشرة كان يتم توزيعها عند مدخل المحكمة يوم الاستماع إلى الشهود فى القضية، وكانت مؤلفة بشكل جيد ومثيرة للاهتمام وتحمل عنوان «ملاحظات حول السيد (بيير باستيان)». كانت النشرة قد أعدت خصيصا لتبرئة ساحة ذلك الأخير. وقد قمنا بالتوقف عند المعلومات التالية والمتعلقة بعدد من أفراد عائلته.

ولدت السيدة (باستيان) الأم فى الثامن والعشرين من شهر نوفمبر 1825 فى مدينة (بواتييه) حيث كان والدها السيد (دى شارتروه) يملك وكالة صغيرة لصرف الأوراق المالية.

كان جدها يعمل حاجبًا فى المدينة ذاتها، وعمها يعمل بنفس المجال فى مقاطعة (فوييه).

أما السيد (باستيان) الأب فقد كان أستاذًا للبلاغة فى مدرسة (بواتييه) الثانوية عندما تزوج من الآنسة (دى شارتروه). فى الثامن من شهر يوليو 1846، ثم أصبح فيها بعد أستاذًا فى كلية الآداب بنفس المدينة وعميدًا للكلية.

يبدو أن السيدة (باستيان) كانت متسلطة فى منزلها وكان زوجها يذعن لذلك الأمر، حيث إن الجميع قد وصفها بأنها امرأة تفرض بكل إلحاح سطوتها على كل من حولها.

رزق السيد والسيدة (باستيان) بولدين: (بيير) الذى ولد فى التاسع والعشرين من فبراير 1848، و(ميلانى) التى ولدت فى الأول من مارس 1849.

كان السيد والسيدة (باستيان) يسكنان مدينة (بواتييه) فى منزل بشارع (لافيزيتاسيون) كان مملوكًا للسيد (دى شارتروه) والد الزوجة وكان السيد (دى شارتروه) يعيش فى هذا المنزل مع أبنائه حتى وفاته بعد اعتزاله عالم الأعمال.

توفى السيد (باستيان) الأب فى هذا المنزل فى التاسع من إبريل 1882.

وكذلك توفى فيه السيد (دى شارتروه) بدوره بعد عام من وفاة زوج ابنته، وتحديدًا فى الواحد والعشرين من إبريل 1883.

أما السيدة (دى شارتروه) واسمها قبل الزواج (كليبر) فكانت قد توفيت قبله بعشر سنوات.

وكان من بين الشهود الذين تم الاستماع إليهم شخص واحد كان يعرف السيد (شارتروه) عن كثب، قال ذلك الشخص بعبارات معبرة جدًا إن ابنة السيد (شارتروه) وحفيدته ورثا عنه ذلك الطبع الغريب والشاذ المائل أحيانًا إلى الجنون، حيث كان ذا طبع «مميز ومختلف».

(كانت هذه هى أقوال القس (مونبرون).

قضى السيد (شارتروه) القسم الأخير من حياته فى حالة من العزلة التامة والانزواء عن الناس من دون أن يكون عاجزا. كان يعيش منعزلًا فى غرفته بالطابق الثانى ولم يخرج منها لأى سبب ولا ليشهد اللحظات الأخيرة فى حياة صهره الذى توفى فى غرفة مجاورة بالطابق ذاته. لم يره أحد فى الطريق قط خلال السنوات العشر الأخيرة من حياته.

أكدت الخادمات القديمات على هذه العزلة النابعة من إرادته. وأضافت إحداهن، السيدة (جول)، بأنها لم تكن مسئولة بشكل خاص عن خدمة ذلك الناسك الذى لم يكن يغادر غرفته أبدًا، ولذا فإنها قد غادرت ذلك المنزل بعد أن خدمت فيه مدة ثلاثة أو أربعة أشهر دون أن ترى ذلك السيد ولو مرة واحدة. فلم تعرف بوجوده إلا عن طريق ما يروى عنه.

* * *

الفصل الخامس

كانت السيدة (باستيان) تبلغ من العمر خمسة وسبعين عامًا تمامًا عندما تم القبض عليها (كانت تبدو أصغر من ذلك، فى الخامسة والستين أو حتى الثانية والستين بحسب أقوال بعض الشهود). كانت قصيرة القامة، ممتلئة القوام إلى حد كبير. ذات ملامح تنم عن القسوة.

وكانت تعتمر أغلب الوقت غطاء رأس لونه أسود مزينًا بالدانتيل أو الشرائط. كانت تحيا حياة منعزلة، لا تستقبل أحدًا ولا تخرج إلا فى حدود ضيقة إلى المدينة التى كان الجميع بها يقدرها ويحترمها.. دون أن تكون محبوبة.

وقد اتفق على ذلك العديد من الشهود الذين تم استجوابهم: «كانت سيدة متسلطة وسريعة الغضب».

روت السيدة (ر.س) زوجة أحد أساتذة جامعة (بواتييه) وهو زميل قديم للسيد (باستيان)، وكانت هذه السيدة من الأشخاص القليلين الذين كانت توافق على مقابلتهم روت الآتى: كان ذلك فى شهر أبريل

1882، عند وفاة السيد (باستيان) الأب، لم تتحمل السيدة (باستيان) مرافقة زوجة ابنها (التى كانت تكرهها) إلى الجنازة، فأرسلت تطلب حضورى لمساندتها فى هذه المناسبة الحزينة. ومنذ ذلك اليوم تعودت السيدة (باستيان) على استقبال زيارة السيدة (ر.س) بشكل منتظم مرة كل أسبوع، فى الأغلب يوم السبت عند الساعة الثالثة، بعد زيارة الطبيب.

تقول السيدة (باستيان): «هكذا لم أكن مضطرة لأخذ زينتى إلا مرة واحدة أسبوعيًا وكان باستطاعتى البقاء طيلة الأسبوع فى ملابس المنزل».

استمرت هذه الزيارة الأسبوعية طوال عشر سنوات. ولم تكن السيدة (باستيان) تستقبل أحدًا قط عدا السيدة (ر.س) وقريبة أخرى لها تدعى السيدة (هالو) كانت زياراتها أقل بكثير من الأولى.

تخبرنا السيدة (ر.س) أن السيدة (باستيان) كان تحدثها فى الغالب عن ابنتها (ميلانى). وعلى حد علمها لم تكن هذه الابنة تنوى الزواج ولكنها كانت تتمنى الترهب، ويبدو أن الدكتور (جيرينو) هو الذى أثناها عن عزمها.

كانت السيدة (ر.س) تنصح السيدة (باستيان) دائمًا بأن تعود للعيش مع ابنتها فى القسم الرئيسى من المنزل؛ فكان ذلك سيسمح لهن بالإقامة فى غرفتين متجاورتين، وبالتالى كانت (ميلانى) ستحظى برعاية أفضل. غير أن السيدة (باستيان) كانت ترفض هذا التغيير الذى كان من شأنه، على حد تعبيرها، جعل عمل الخدم أصعب بكثير.

تقول السيدة (ر.س) «لم تسألنى السيدة (باستيان) قط إن كنت أرغب برؤية ابنتها. وذات يوم، كتبت لها رسالة أعرض فيها عليها إرسال إحدى بناتى للتسرية عن ابنتها؛ ولكن لما لم تجب عن هذه الرسالة والتزمت الصمت فهمت أنها لم تكن تريد لأحد أن يتواصل مع الآنسة (ميلانى)... ولم أصر على طلبى».

كان (بيير باستيان) يدخل فى كثير من الأحيان فى مناقشات حادة مع والدته التى كانت قد منعته من دخول أملاكها بمنطقة (مينييه). وعندما علمت بأنه ذهب إلى هناك رغم منعها له، ثارت عليه وسبته وقامت بطرده. وذات يوم آخر، قام (بيير باستيان) بقطف زهرة من حديقة والدته التى كان قد جاء لزيارتها، وعندئذ وقعت بينهم مشاحنة فاضحة؛ حتى إنهما كادا يتشابكان بالأيدى، فقامت السيدة (باستيان) بطرد ابنها مرة أخرى ونبهت على الخدم بعدم السماح له بالدخول إذا حضر مرة أخرى. غير أن أغلب خلافاتهما كانت بسبب الأمور المادية. كانت السيدة (باستيان) تعطى ولدها إعانة شهرية وعند حلول أجل كل إعانة كانت تقع بينهما خلافات ذات يوم، وجدتها السيدة (ر.س) فى حالة من الثورة العارمة وكانت تقول: «أريد أن أكون الآمرة فى منزلى. لقد طردت لتوى ولدى من منزلى ومنعته من العودة لدخوله مرة أخرى».

تضيف السيدة (ر.س) على الفور بأنها اعتقدت فى بادئ الأمر أن السبب وراء هذه المشادة كان المصالح المالية، غير أنها اكتشفت بعد ذلك أن السبب قد يكون متعلقًا بـ (ميلانى)، حيث شكت السيدة (باستيان) من إصرار ولدها على إدخال شقيقته مصحة علاجية، وهو الشيء الذى

ترفضه الأم وستظل ترفضه دائمًا، حتى إنها أخبرتها أنها قامت بكتابة وصيتها حتى تجبر ابنها على عدم تغيير أى شيء صدقت هى عليه. كانت تريد لابنتها التى طالما ضحت من أجلها أن تظل تسكن ذات الغرفة التى تشغلها منذ سنوات عدة، والتى جاء ذكرها فى الوصية الرسمية الخاصة بالسيدة (باستيان) الأم(*).

أرادت السيدة (ر.س) أن تلمح إلى أنه ربما كان خوف (بيير باستيان) من الحرمان من القسط السنوى الذى تمنحه له والدته وقدره نحو خمسة آلاف فرنك هو الذى منعه من معارضة قراراتها، وأجبره على غض بصره عن أشياء كان يستهجنها.

ثم فجأة ومن دون مقدمات أو تفسير أغلقت السيدة (باستيان) بابها فى وجه السيدة (ر.س) دون أن تتعكر الأمور بينهما، دليل أنها ذكرتها فى

(*) وصية السيدة (باستيان):
تفيد وصية السيدة (باستيان) المؤرخة فى الخامس من شهر يناير ١٨٨٥ بحرمان ابن السيدة المذكورة من الميراث فى نطاق ما تسمح به القوانين.
تترك صاحبة الوصية نحو مائة وواحد وخمسين ألف فرنك وسبعمائة، من أصل خمسمائة ألف فرنك هى مجمل وصيتها، إلى أشخاص غرباء (يضاف إلى ذلك نحو خمسة وعشرين ألف فرنك مصاريف إدارية).
علاوة على ذلك تأتى صاحبة الوصية على ذكر ابنتها فتقول: ((أمنح ابنتى حق الانتفاع والتمتع، خلال حياتها، بالغرفة التى تعيش فيها حاليًا، وكذلك الغرفة التى كانت تشغلها سابقًا. وكذلك الغرفة المقابلة لها، بالإضافة إلى مكتب والدى.
((أريد أن تتابع ابنتى حياتها، بعد وفاتى، فى ذلك الجزء من المنزل الذى وهبتها حق التمتع به)).
«أريد أن يخصص كل دخل من حق ابنتى كليًا لتوفير الرعاية اللازمة لها».

وصيتها المكتوبة فى عام 1885، التى كان بإستطاعتها تغييرها بسهولة لو شاءت. لا تفسير إذن لهذا الموقف سوى تفاقم ذلك المزاج السوداوى وكراهيتها للمجتمع.

يخبرنا سكرتير بكلية الحقوق أن السيدة (باستيان) كانت قد أعطت منذ عدة سنوات تعليمات بعدم السماح لأى شخص بدخول منزلها.

كانت بوابة المدخل مغلقة دائمًا بالمفتاح، وكان لا بد من المرور بالفناء الصغير لدلوف المنزل والبناية، أما فى حياة السيد (باستيان) كان ارتياد المنزل ما زال ممكنًا، وبعد وفاته تم إعطاء أوامر صارمة بعدم السماح لأى شخص بدخول المنزل باستثناء الخادمات. سنلجأ دون شك لسماع أقوال تلك الخادمات، اللاتى تم تغييرهن مرارًا، فى محاولة لفهم ما كان يحدث داخل هذا المنزل الغريب الذى كان الجميع داخله يسير على أطراف أصابعه، بحسب ما تخبرنا إحدى الخادمات.

غير أن أقوال الشهود يجب ألا تؤخذ كلها مأخذ الجد دون تحفظ، خاصة فيما يتعلق بتغذية الحبيسة. ففى الواقع، لا أحد باستطاعته مثلًا التأكيد على استفادة (ميلانى باستيان) من وجبات المحار والدجاج التى كانت والدتها تطالب تقديمها إليها (هذا ما تؤكده فواتير تجار توريد الطعام). إن هذا النوع من الوجبات الوفيرة الراقية يتنافى مع البخل المنفر الذى وصفت به فيما بعد.

تخبرنا الخادمات كذلك بأن السيدة (باستيان) ما كانت تدلف أبدًا إلى غرفة ابنتها، وعلى ذلك لم تكن لتعرف يقينًا إذا كان الدجاج والمحار

اللذان تشتريهما من أجلها يصل إليها أم لا. وعلى الرغم من ذلك، أتت (ميلانى) ذات مرة، وهى بالمستشفى، على ذكر أطباق الدجاج التى كانت تقدم لها فى «ذلك المكان الكبير العزيز ملامبيا».

كانت هذه هى إحدى النقاط المهمة الغامضة بالقصة، التى لم يمكن إزاحة الستار عنها... كذلك بقى تناقض طباع الشخصيات أمرًا محيرًا للغاية. فمن ناحية أخرى توافقت أقوال الشهود من الخدم على فكرة أن السيدة (باستيان) كانت ترفض بإصرار السماح بتغيير مرتبة وملاءات وأغطية فراش ابنتها، على الرغم من وجود مخزون كبير من هذه البياضات بغرف المنزل الأخرى.

يقول (السيد تكسييه) مفتش بالشركة العامة للحافلات، الذى كان يعمل فى خدمة السيدة (باستيان)، إنها كانت شديدة البخل حتى إنه لم يكن يجرؤ على مطالبتها بأجره، وكان يطلب إلى والدته أن تفعل ذلك نيابة عنه. يضيف كذلك أنه طوال مدة ستة أشهر قضاها فى منزلها لم يرها تغير ذات الرداء الذى كانت ترتديه والذى كان شديد الاتساخ.

يبدو أن كل أفراد هذه العائلة يتصفون، لا بالبخل، وإنما بنوع من حب القذارة. سنرى مثلًا فيما بعد أن هذه النزعة الغريبة اتخذت لدى الابن شكلًا أكثر تنفيرًا. ولكن هل نستطيع الحديث عن البخل عندما نسمع الخادمة (جوليت دوبوى) تروى ما يلى:

«فى المساء، لم تكن الآنسة (باستيان) تأكل شيئًا، تقريبًا كانت بالكاد تتناول فطيرة صغيرة، وفى الصباح تتناول فى الساعة التاسعة فنجانًا من

الشيكولاتة وترفض تمامًا تناول الخبز. وعلى العكس من ذلك كانت وجبة الظهيرة التى كنت أقدمها بنفسى للآنسة (ميلانى) تشتمل عادة على سمك موسى مقلى أو قطعة من ضلع خروف مع البطاطا. وكانت الفتاة (تابو) هى التى تعد هذه الوجبات. وفى بعض الأحيان كنا نطلب من الفنادق (فواتير الفندق تثبت ذلك) إحضار أطباق جاهزة سواء من الدجاج المطهو مع النبيذ الأبيض وعش الغراب أو الدجاج بمرق التوابل. وفى كثير من الأحيان كنا نطلب المحار(*) عندما يكون موسمه وكذلك معجنة الكبد والتوابل.

يؤكد السيد (روبين) صاحب فندق (فرانس) فى إفادته بأنه كان يطلب إليه توريد بعض الأطباق فى الغالب مرتين أو ثلاث مرات أسبوعيًا.

كذلك تفيد سجلات شركة (مايار لورندو) والتى تسلمها قاضى التحقيقات بتوريد كمية كبيرة جدا من النبيذ عالى الجودة (سعر الزجاجة 0.75 فرنك) ونبيذ بوردو النقى (سعر الزجاجة يتراوح ما بين 2 إلى 3 نكات) إلى منزل السيدة (باستيان) خلال العامين الأخيرين. ولم تكن عادات وطباع تلك السيدة المعروفة بالتقشف والحرص الشديدين تسمح بأن نفترض أنها كانت تنفق كل ذلك من أجلها هى.

كانت نفقات السيدة (باستيان) من أبسط ما يمكن. ويبدو أنها لم تكن تمس المحار والدجاج والكبد الذى كان يأتى به من أجل ابنتها.

(*) تفيد السيدة (فور) بائعة المحار فى شهادتها بأنها دأبت على توريد المحار طوال ٢٥ سنة لمنزل عائلة (باستيان) وأن الخادمات كن يأتين لشراء المحار منها كل يوم أو كل يومين. وكانت السيدة (باستيان) تطلب دائمًا أفضل وأطيب المحار الطازج لابنتها الآنسة (ميلانى).

نقرأ فيما يلى أقوال الخادمة الفتاة (دوبوى):

«كنت أحضر لها الطعام فى طبق ولا أضع أبدًا سكين حيث كنت أعرف أنها لن ترد إستعماله. فقد كانت تدعى أن الفتاة المهذبة التقية لا يجب أن تستخدم السكين كنت أضع دائمًا فى طبقها شوكة ولا أضع ملعقة فلم تكن تتناول أى حساء أبدًا. لم تنشأ الآنسة (باستيان) كذلك استخدام الشوكة؛ فكانت تستخدم أصابعها لتناول الطعام. لم أكن أحضر لها منشفة على الرغم من أنها طلبت منى ذلك عدة مرات لمسح يديها ولكن كانت السيدة (باستيان) ترفض إعطائى مناشف».

قالت خادمة أخرى إن الآنسة (باستيان) ما كانت تأكل على الفور الطعام الذى يقدم إليها وإنما كانت تحتفظ بشىء منه بجوارها على الفراش، الأمر الذى يفسر وجود تلك الكميات من بقايا الأطعمة.

«حضر السيد (بيير باستيان) عدة مرات بينما كنت أطعم شقيقته، ولكنه لم يهتم قط بأمر تغذيتها ولم يسأل قط إذا كان ينقصها شىء. كانت الآنسة (باستيان) تشرب النبيذ الأبيض مع وجبة الغذاء بعد تخفيفه بالماء. لم يرفض أحد قط على حد علمى منحها الطعام والشراب.

سأقاطع هنا للحظة شهادة (جولييت دوبوى) لأضمنها مقطعًا مذهلًا من أقوال (فرجنى نوفو)، التى سأسوق فيها بعد أجزاء أخرى شديدة الإثارة من شهادتها:

«كانت (ميلانى باستيان) تتناول الأطعمة ذاتها مثل والدتها ولكن فيما يتعلق بالشراب، كانت السيدة (باستيان) الأم تأمر بعدم إعطائها إلا

الماء المحلى بالسكر، والذى كانت تضيف له بعض الإثير. كانت (ميلانى) ترفض تناوله فى كثير من الأحيان فتأمرنا الأم بوضع الكأس المحتوية على هذا الشراب فى القبو، فنعود لنقدمه لها كل يوم حتى تقبل بتناوله».

تتابع (جولييت دوبوى) أقوالها مؤكدة عند وصولى إلى هذا المنزل فى عام 1899 كانت غرفة الآنسة (باستيان) على ذات الحال الذى وجدتموها عليه الآن؛ ذات الأثاث، ذات الفرش وذات القذارة. وكثيرا ما طلبت أنا والفتاة (تابو) من السيدة (باستيان) أن تعطينا من المفروشات ما يسمح بتغيير ملاءات وأغطية ووسائد ومرتبة هذه الغرفة، فكان الرد يأتى دائمًا سلبيًا وشديد اللهجة.

كانت السيدة (باستيان) تجيبنا دائمًا بأننا لن نتمكن أبدًا من حملها على الاحتفاظ بنظافتها. وعلى الرغم من ذلك يجب أن أؤكد هنا، أنه كان من اليسير علينا أنا والفتاة (تابو) أن نقوم بتنظيفها وأن نجعلها تكتسب بعض العادات السامية المتعلقة بالنظافة عندما تبينا أن السيدة (باستيان) كانت تريد حتمًا ترك ابنتها فى هذا الفراش القذر الملىء بالديدان، وهى عارية تمامًا، دون قميص أو أى ملابس... مغطاة فقط بغطاء حقير. وعندما أيقنا كذلك أنه كان من الممنوع منعًا باتًا علينا فتح النافذة التى ظل مصراعاها مغلقين بقفل، وأننا كنا مجبرتين على غلق باب الغرفة بشكل دائم بحجة أن فتحه كان يصيب الآنسة (باستيان) بالزكام، امتثلنا لكل ذلك ولم نقل شيئًا ولكننا أبلغنا الجيران.

«كانت رائحة غرفة الآنسة (باستيان) كريهة، كان الهواء بداخلها فاسدًا غير قابل للتنشق.. ولم يكن هنالك عجب فى ذلك حيث كانت

الآنسة تقضى حاجتها من البراز وغيره فى الفراش ولم يكن يسمح لنا برفع الملاءة الموضوعة تحتها والمثنية أربع طبقات إلا فى الساعة التاسعة والنصف مساء.

«كانت السيدة (باستيان) على علم تام بحالة القذارة المرعبة التى تُركت ابنتها عليها وكانت تكتفى بالقول: آه! طفلتى المسكينة، ماذا تريدوننى أن أفعل؟".

((كان السيد (بيير باستيان) على علم بكل شىء، وكان يأتى كثيرًا لزيارة شقيقته ولم يطلب منا ولو مرة واحدة أن نعتنى بنظافتها؛ بل على العكس، عندما كنا نحاول تهوية الغرفة عن طريق فتح الباب فقط حيث كانت النافذة مغلقة بإحكام طوال الوقت، كان يذهب لإبلاغ والدته التى كانت توجه لنا توبيخًا عنيفًا».

كما قلت سابقًا، كانت أقوال خادمات السيدة (باستيان) متناقضة أغلب الوقت. وعلى ذلك، فمحاولة جمعهن وتلخيصهن ستكون فيها كثير من الخطأ والفقد لجانب كبير من أهميتهم؛ فلكل منهن طابها الخاص. لعل من الأفضل ذكر الأجزاء البارزة بشكل مباشر هنا.

فلنتعرف على ما قالته (جولييت برو) التى استخدمتها السيدة (باستيان) أول الأمر كخادمة ثم كطاهية فى الفترة من يونيو 1897 إلى سبتمبر 1898:

«عندما دلفت لأول مرة إلى غرفة الآنسة (باستيان) شعرت برجفة؛ كانت الرائحة المنبعثة من فراش الآنسة (باستيان) كريهة ومنفرة. لم تكن

هناك فى ذلك الوقت بقايا اللحم والفضلات البشرية، غير أن المرتبة والفراش كانا فى حالة من التعفن التام... لا بد أن الآنسة (بيروش) التى كانت تخدم معى فى ذلك الوقت قد أخبرتكم بذلك.

كانت الآنسة (باستيان) عارية تمامًا، يلفها فقط غطاء شديد القذارة، ولاحظت أن الصراصير تجرى عليه بكثرة. كنا نضع كل ليلة تحت الآنسة (باستيان) ملاءة مطبقة على أربع، مخصصة لتلقى البراز، ولم يكن يتم تغييرها إلا مرة واحدة كل أربع وعشرين ساعة.

لم تكن الآنسة (باستيان) مختلة عقليًا بشكل مطلق، فقد كانت تتفوه أحيانًا بأشياء فيها كثير من العقل والرصانة، ولكنها كانت ترفض أن يتم تنظيفها وتحرص دائمًا على تغطية رأسها.

كانت طبقة كثيفة من الأتربة تغطى الأثاث، وكان من المستحيل إزالتها. كان مغلقا الشباك لايفتحان أبدًا؛ فكنت أحاول أحيانًا تجديد هواء الغرفة عن طريق الباب رغمًا عن تحذيرات السيدة (باستيان) التى كانت تريد دائمًا إحكام غلق كل المنافذ ولكنها كانت أحيانًا تسمح بفتح الباب فى الفترات التى تشتد فيها حرارة الجو فقط.

طوال خمسة عشر شهرًا كنت أنام بهذه الغرفة؛ كانت الرائحة غير محتملة، فيما عدا الأوقات التى كان يتم فيها فتح الباب؛ كذلك فى المساء حيث كنت دائمًا أترك الباب مفتوحـًا. لو كانت السيدة (باستيان) قد علمت بذلك لغضبت كثيرًا، واعتقدت بأننا نريد أن تصاب ابنتها بنزلة برد. كثيرًا ما طلبنا جميعًا، أنا و(إيلين بونو) و(برت بيروش) اللتين كانتا

تخدمان معى فى ذات الوقت.. وكنا دائمًا نتلقى رفضًا تامًا من جانب السيدة (باستيان) التى كانت تقول لنا: لن تستطيعوا تغييرها؛ آه! يا ابنتى المسكينة كم تسببت فى خرابى!".

كانت توجد فى المنزل مراتب ومفروشات غير مستعملة؛ لم تكن هناك حاجة لشراء جديد. وعندما كنت أطلب إلى السيدة (باستيان) أن تعطينا قميصًا لألبسها إياه، كانت تجيب: "المسكينة لا تريد أن تلبس شيئًا.

لم يكن للآنسة (باستيان) أى ملابس وكانت خزانة غرفتها خالية من الأدراج.

أؤكد هنا أنه كان من الممكن جعل الآنسة (باستيان) نظيفة إذا كانت هناك رغبة فى ذلك؛ غير أن هذا الأمر كان يتطلب مساعدات أخرى وإرادة لم تكن موجودة لا عند السيدة (باستيان) ولا عند السيد (باستيان) الابن.

لم أر الآنسة (باستيان) واقفة قط؛ حاولت عدة مرات رؤية وجهها فلم أتمكن من ذلك قط. كان جسدها ضامرًا بشكل مرعب على الرغم من تغذيتها بشكل مناسب. فى الصباح، كنا نقدم لها قهوة باللبن أو شيكولاتة ساخنة، وفى الظهيرة نقدم لها على الأقل طبقين من الطعام.. أما فى المساء فكانت ترفض تناول أى شىء.

تركت العمل عند السيدة (باستيان) لأننى لم أستطع أن أتفق مع سيدة بهذا البخل والتسلط.

كنت أرثى لحال الآنسة (ميلانى باستيان) غير أننى لم أفكر قط فى إبلاغ السلطات.

تخبرنا (لويز بيشار) أن الآنسة (ميلانى) كانت تبقى طوال الوقت مرتكزة على كوعها فى وضع شديد الإيلام بالنسبة لها، كان من الممكن مساعدتها بوضع وسادة أو مسند تحت رأسها، ولكن كان سيتعين تغييرها من وقت لآخر، وهو الشيء الذى لم تكن السيدة (باستيان) توافق عليه. كانت هذه السيدة شديدة البخل لدرجة كان يستحيل معها حملها على الموافقة على تغيير مفروشات السرير التى كانت فى حالة مزرية رغم مطالبتى الدائمة وإصرار باقى الخادمات اللاتى كن يساعدننى.

وعلى الرغم من ذلك، توسلت كثيرًا ذات يوم إلى السيدة (باستيان) حتى سمحت لى بالذهاب لإحضار مرتبة من إحدى غرف القسم الرئيسى بالمنزل، حيث كانت هناك عدة أسرة كاملة غير مستعملة. أحضرت المرتبة إلى غرفة الآنسة (ميلانى) وعندما رأت السيدة (باستيان) أننا سنستبدل الفراش المتعفن بها اعترضت على هذا التغيير واضطررت لإعادة المرتبة إلى مكانها.

«أذكر أنه قبل عدة أيام من تركى للعمل لديها اختلفت مع السيدة (باستيان) حيث كانت تريد دومًا استخدام ذات البياضات والمفروشات بينما كانت خزانتها ممتلئة بمفروشات أخرى.

كنت دائمًا ألوم السيدة (باستيان) على تركها ابنتها فى هذه الحالة من القذارة حتى إننى نصحتها بإحضار راهبة إلى المنزل فأجابتنى بأنه لا فائدة من ذلك، حيث إن ابنتها ليست مريضة وأنها بحال جيدة كما هى بما أنها تبدو سعيدة».

تقول خادمة أخرى: «لم تكن الآنسة (ميلانى) ترضى بالعيش هكذا وحسب وإنما كانت سعيدة بذلك جدا. أذكر أننى سألتها يومًا إذا لم تكن ستصبح أسعد حالًا إذا أقامت فى غرفة نظيفة، جميلة مزودة بأثاث جميل، فأجابتنى: آه! تلك مغارتى العزيزة الصغيرة! لا أريد لأى سبب كان ترك هذه الغرفة ولو للحظة. أنا مرتاحة فيها جدا».

تقول (بيرت بيروش): «ذات مرة طلبنا أن نغير مرتبة وفرش السرير اللذين كانا قد تعفنا تمامًا واستبدالهما بأغراض أخرى كانت متوفرة فى المنزل، وتكاد تبلى من عدم الاستخدام، فرفضت السيدة (باستيان) وأجابتنا بأننا لن نستطيع وضعهما لها وأنها على كل حال لاتريد تغييرهما. غير أنها سمحت لنا، بعد كثير من التردد، بأن نصنع بأنفسنا ثلاث وسائد صغيرة وضعنا إحداها تحت الآنسة واحتفظنا بالاثنتين الأخريين كغيار لاحقًا.

«طلبنا من السيدة (باستيان) أن تدخل ابنتها إلى مصحة علاجية فأجابتنا بأنها قطعت على نفسها عهدًا بالبقاء مع ابنتها حتى موتها».

فنستمع مرة أخرى لما قالته (جولييت دوبوى):

«لايستطيع السيد (بيير باستيان) القول بأنه لم ير حالة القذارة التى كانت قد آلت إليها شقيقته، حيث إننى أجزم بأنه ذات مرة فى حضورى وحضور (أوجينى تابو) رأى بأم عينه هو ووالدته ما كنا نسميه بعملية «تجهيز الآنسة (ميلانى) للنوم». وكانت هذه العملية تتم كالتالى: كانت الآنسة تنهض وتجلس على أربع فتقوم الطاهية برفع الأغطية التى تلفها

عدا التى تغطى رأسها، ثم تسحب الملاءة المثنية على أربع طبقات، التى تحتوى على غائطها لمدة أربع وعشرين ساعة الماضية ومعها أيضًا وسادة صغيرة مقززة للغاية؛ لنضع وسادة جديدة جافة، غير أنها غير نظيفة وملاءة أخرى...لتعود الآنسة (ميلانى) متخذة وضعها الأول على الفراش.

((حضر السيد (باستيان) هذا المشهد على الأقل مرة، ولذا من الصعب الجزم باعتقاده بأن شقيقته كانت تنال رعاية جيدة؛ فكانت الوسادة التى توضع تحتها يتم تجفيفها طوال الشتاء داخل الغرفة ذاتها، فما كان من الممكن ألا يراها».

ما تفسير هذا الموقف الغريب من الأخ؟

حان الوقت لنتحدث عنه قليلا.

سنلجأ إذن للكتيب المهم الذى أعده السيد (باربييه) المحامى بمحكمة الاستئناف، الذى أشرنا إليه فيما قبل وذكرنا منه عدة مقاطع.

***

الفصل السادس

أمامنا صورة للسيد (بيير باستيان) يظهر فيها وقد اعتمر قبعة من اللبد القاسى مرتفعة بعض الشىء، وذات حواف عريضة. كان رأسه غائرًا فى كتفيه فلا نكاد نرى ياقة قميصه وإنما نلاحظ فقط ربطة عنق سوداء.

كانت تجاعيد عميقة تصل ما بين جانبى الشفاه وجوانب الأنف. كان شاربه متهدلًا كثيفًا، يتصل على جانبى الوجه بسوالف كثيفة تطال لتتجاوز ذقنه العريض المحلوق، كان يضع نظارة أنفية وكانت له نظرة شخص حسير البصر، فيها شىء من الانحراف والميل.

رأينا كيف أن السيد (بيير باستيان) كان ضعيف الشخصية خاضعًا لسيطرة والدته التى ما فتأت تعامله كولد صغير. غير أنه كان يعرف كيف يعلن عصيانه فى بعض الأحيان وهو الشىء الذى يتضح من رسالته إلى والدته بتاريخ 11 يونيو 1893؛ تلك الرسالة التى يأتى على ذكرها تقرير السيد (باربييه):

«قبل أن ألجأ إلى اتخاذ الإجراءات العنيفة التى أرى نفسى مجبرًا عليها لإنقاذ وضعى الاجتماعى، أردت أن ألفت انتباهك مرة أخرى إلى حاجتى الضرورية إلى مبلغ الألفى وخمسمائة فرنك للعيش فى (بواتييه).

أنت مدينة لى بهذا المبلغ خاصة، أنها رغبة جدى الذى طالما أراد أن يؤدى إلىَّ هذا الريع بعد وفاته. سوف أتِ بشهود سمعوه يصرح بذلك. هنالك أيضًا خطاباته إلىَّ والتى أحتفظ بها فى درج مكتبى.

يكفى إعمال العقل لمعرفة أننا لانستطيع العيش بمبلغ ألف ومائتى وثلاثين فرنكًا التى أعطيتنى إياها بالأمس.

لم تمنحينا هذا العام فلسًا واحدًا كهدية لرأس السنة، وعلى الرغم من كل المصروفات التى أتكبدها حتى أحافظ على مكانتى الاجتماعية فى وقت نحن بحاجة ماسة إلى أن نثبت أننا لسنا عائلة من البؤساء، على الرغم من ذلك لم أطالبك بسنت واحد. أعتقد أنه بدلا من اتهامنا بالإسراف يجب عليك أن تشكرينا وتمدحينا على كوننا قد وهبناك حفيدة نجحنا فى حسن تربيتها وجعلها مشرفة.

بدوت دائمًا حريصة على تشجيعى على شرب النبيذ، أعرفك أننى اعتبارًا من اليوم لن أشرب إلا الماء ولن آكل سوى الفاصوليا.

إننا نفضل أن نحرم أنفسنا من الغذاء على أن نتخلى عن الحفاظ على مكانتنا الاجتماعية... وهذا الشتاء لن نستطيع إشعال المدفأة فى المنزل على كل حال، لم يكن هناك داع لحملنا على مغادرة منزل شارع (بونسون).. نزعت منا بيد ما أعطيته باليد الأخرى.

يمكنك أن تتفاخرى بكونك السبب فى التعجيل بأجلى وإذا توفيت قريبًا ستكونين المسئولة عن ذلك».

كثر هم الشهود الذين يصفونه بقصر البصر وقلة البصيرة فى آن واحد، وبأنه يتصف أيضًا بسذاجة غير عادية. لم يكن منعدم الذكاء بشكل خاص.

كان أصدقاؤه يحبونه ويضحكون من تصرفاته الغريبة؛ ومن بينهم عازف البيانو (فرانسيس بلانتيه) الذى كان يلتقيه كثيرًا عندما كان مستشارًا بنيابة (مون - دى - مارسان) لم يكن شخصًا عديم الثقافة، بل كانت له بعض التجارب الأدبية لم يكن يعرفها سوى المقربين. هؤلاء المقربون يؤكدون أنه كان متمردًا على كل العادات والمبادئ الأولية المتعلقة بالنظافة.

تقول الآنسة (جيرو)، التى ظلت لبعض الوقت تعتنى بغرفته، إنه كان يحرص على ترتيب فراشه بنفسه، تؤكد خادمة أخرى وهى الآنسة (جودار) أنه كان يرفض تمامًا أن يتم تغيير ملاءات سريره.

«كنا نضطر لتغييرها دون أن يلاحظ ذلك وعندما كان ينتبه إلى أننا فعلنا ذلك كان ينزعج».

كان يضع حقيبة صغيرة عند مقدمة الفراش لتحل محل الوسادة. وكان يمنع أن يتم تنظيف غرفته، التى كانت قذرة ومنفرة.. لا يتم كنسها أبدًا وكل شىء بها تغطيه طبقة سميكة من الأتربة. الغرفة تعمها الفوضى بصفة دائمة؛ ويوجد بها العديد من الدلاء المملوءة لمنتصفها بالبول.

هل يجب أن نرى فى كل ذلك مجرد علامة على الإهمال، تلك الكلمة التى استخدمها بعض الشهود.

من الواضح، كما سنرى فيما يلى، أن السيد (بيير باستيان) كان يطيب له العيش فى القذارة. حتى إن كلمة قذارة ليست كافية لوصف ما كان يعيشه. سيقل عجبنا من عدم استياء السيد (باستيان) من رائحة العفن التى كانت تنبعث من فراش وشعر شقيقته، بل واستمتاعه بها، إذا عرفنا ما يلى:

«فى وسط غرفته كانت هناك مبولة تحل محل بيت الراحة، وكان يرفض أن يتم نقلها من مكانها مادامت تتسع لاستيعاب المزيد. حتى إنه ذات يوم طلب من مالك البيت الذى يسكنه أن يوفر له مبولة أكبر حجمًا حتى يتم إفراغ محتواها عدد مرات أقل».

هناك ما هو أسوأ من ذلك وهو ما تخبرنا به السيدة (برجيه) خادمة سابقة عند (بيير باستيان) التى تؤكد: «حدث مرتين أو ثلاث مرات أن صعد السيد (باستيان) إلى غرفته بعد تناول الغداء ليقضى حاجته من البراز فى مبولته أو الإناء المخصص لذلك، ومن ثم يحضره إلى المطبخ حيث أكون منهمكة فى تناول غدائى ليطلب منى أن أذهب لإفراغه.

وذات يوم، أمر برفع فراش زوجته من غرفة نومهما المشتركة ليتم وضعه فى دورة المياه المجاورة، ثم بعد أن فرغ من قضاء حاجته فى المبولة وضعها على مائدة صغيرة بجوار فراش زوجته «حتى تشم الرائحة جيدًا»، حسب ما قال آنذاك. ولمزيد من التأكيد أغلق النافذة.

كان السيد (بيير باستيان) ضعيف البصر على الرغم من وضعه نظارته الأنفية، فعندما كان يدخل المطبخ كان يقترب من الأطباق لدرجة يكاد

معها يحرق نفسه. كانت حاسة الشم لديه ضعيفة كذلك. ما كان يجب أن تدلف الخادمات إلى غرفته حتى إن المبولة التى كان يقضى حاجته بها كانت تظل لعدة أيام فى وسط الغرفة دون أن يتم إفراغها فتحيل المكان إلى مكان موبوء يعيش به وكأنه لا يلاحظ شيئًا».

لا جدوى من الإتيان على ذكر أقوال خمسة أو ستة شهود آخرين يؤكدون الأشياء ذاتها جميعهم.

كل ما ذكر حتى الآن يفسر لنا كيف أن السيد (بيير باستيان) كان يأتى يوميًا لزيارة غرفة شقيقته وقراءة الجريدة عندها - كما يؤكد عدة شهود- دون أن ينزعج من رائحة الغائط، بل على العكس واجدًا فى ذلك متعة استنشاق من نوع خاص.

لا عجب كذلك فى عدم سخطه على وضع كان هو نفسه معتادًا عليه. غير أنه إذا رجعنا إلى الماضى قليلًا نجد أن بعض خطابات (بيير باستيان) تدل على أنه بذل، فى بادئ الأمر، جهودًا حانية لتوفير حياة طبيعية لشقيقته.

كتب ذات مرة فى التاسع والعشرين من فبراير 1876 من مدينة (مون - دى - مارسان):

«صغيرتى (جوترود) (*)، أوجد اليوم وسط كم من الأقنعة وملابس التنكر، فهناك حفل هذا المساء فى دار البلدية. كل وسائل الترفيه متوفرة،

(*) اسم كان يطلقه على شقيقته فيما بينهما. وكانت الآنسة (ميلانى) تنادى أخاها «الصغير بيير»، وكان كلاهما يطلق على والدتهما السيدة (باستيان) الأم اسم (بونين).

آمل أن يكون الوضع بمدينة (بواتييه) مماثلًا حتى تستطيع الخروج من زنزانتك والتنزه قليلًا فى (بلوساك)».

كذلك كتب فى الخامس من أغسطس 1882 تذييلًا لخطاب كتبه لوالدته: «صغيرتى (جروترود)، لا يمكننى الكتابة لوالدتنا دون أن أخصك بكلمات قليلة، لتعرفى أننى لا أنساك. أتمنى ألا تكونى مريضة فى هذه الآونة، انتبهى لصحتك واشتر ثوبًا مثل كل الفتيات وعند عودتى إلى (بواتييه)، فى القريب، سنذهب فى جولة معًا إذا شئت ذلك. سيكون ذلك أفضل من بقائك حبيسة غرفتك».

نقرأ كذلك فى خاتمة رسالة إلى والدته بتاريخ 16 أغسطس 1883:

«قبّلى (جروترود) نيابة عنى وقولى لها إننى لا أنساها وإننى سأكتب لها فى المرة المقبلة.. قولى لها أن تهتم بصحتها وتعزم على التريض واستنشاق الهواء مثلما يفعل الجميع».

يفيد السيد (باربييه) بأن هذه العبارات تدل فى آن واحد على اهتمام السيد (باستيان) بشقيقته من ناحية وعلى رغبة الآنسة (ميلانى باستيان) فى الانعزال عن العالم بكامل إرادتها من ناحية أخرى.

* * *

الفصل السابع

«يقول السيد (باربييه) فى تقريره الطويل إن عادة الانعزال عن الناس، التى أصبحت مطلقة، كانت موجودة عن الآنسة (ميلانى باستيان) منذ عام 1873، فى ذلك الوقت كانت قواها البدنية والنفسية سليمة تمامًا.. وكان والدها وجدها ما زالا على قيد الحياة؛ حريصين على حمايتها وردها إلى العقل والرشاد إذا حادت عنهما».

كان عمر (ميلانى باستيان) وقتها ثلاثة وعشرين عامًا. يؤكد عدد من الشهود أنها كانت فى ذلك العصر لا تزال شابة رقيقة جدًا وحسنة الخلق. غير أن الاضطرابات العقلية بدأت فى الظهور عليها اعتبارًا من عام 1871.

فلنستمع إلى شهادة السيد (تيودور توشار) صاحب أحد مصانع الجص.

«كنت من جيران عائلتى (شارتروه) و(باستيان) ولذا كنت أعرف أبناءهم جيدًا وكذلك الوالدين؛ كانت الآنسة (ميلانى باستيان) تأتى

كثيرًا لزيارتنا وهى بعد طفلة صغيرة، كانت مرحة للغاية وتميل إلى إثارة الفوضى، كانت من الشخصيات المليئة بالحيوية، استمرت علاقتنا بها لسنواتٍ عدة بوصفنا جيرانا.

فى وقت ما لا أستطيع تحديده بالضبط، تقريبا عندما كانت الآنسة (ميلانى) تبلغ من العمر عشرين أو اثنين وعشرين عامًا، استرعى انتباهنا مثلنا فى ذلك مثل كل الجيران تصرفات هذه الفتاة، التى كانت تخرج برفقة خادمتها السيدة (فازى) للتردد على الحارة التى كان يسكن بها حينذاك ابن السيد (إم.سى).

سرت بعد ذلك شائعة تقول بأن الآنسة (باستيان) ستتزوج من (إم.سى) وهو الشىء الذى أدهشنى وأدهش الجيران جميعًا؛ فقد كان هناك فارق كبرا بالعمر بينهما. انصرمت بعد ذلك عدة أشهر دون أن يتم الزواج، وبعد ذلك لم تعد الآنسة (باستيان) تخرج من منزلها ولم يعد أحد يراها. سمعت وقتها أن السيدة (باستيان) رفضت زواج ابنتها من السيد (إم.س) لأنه كان يكبرها فى العمر. أكرر مرة أخرى أنه اعتبارًا من ذلك الوقت لم أعد أرى الآنسة (ميلانى)، وأجهل تمامًا القرار الذى اتخذته عائلة (باستيان) بشأنها».

إن المعلومات التى يمكننا الحصول عليها حول حالة الآنسة (ميلانى) قبل عام 1880 نادرة جدًا. تخبرنا (مارى فازى) التى بقيت بالخدمة عند السيدة (باستيان) لفترة طويلة، أن الآنسة (باستيان) كانت ترغب فى بادئ الأمر بالزواج، ومن ثم عزمت عن الأمر وفكرت بالرهبنة غير أن والدتها كانت تعارض هذه الفكرة بشدة.

تضيف (ماري فازى) أن المضايقات التى عانت منها الآنسة (باستيان) تسببت فى إصابتها باضطراب عقلى ولكنه لم يمنعها من التفكير المتزن بكثير من الأمور. لا يمكن تحديد أى تاريخ لهذا التصريح الذى أدلت به السيدة (أونوريه) ولكننا نرى أنه يجب إرجاعها إلى فترة ما قبل وفاة السيد (باستيان) الأب، أى قبل التاسع من إبريل عام 1882.

«كانت الآنسة (ميلانى) تنزل بضع مرات إلى قاعة الطعام لتعزف البيانو وتغنى؛ وسرعان ما كانت والدتها تجبرها على العودة إلى غرفتها بعد أن توبخها بقسوة وتقول لها إنها تتصرف بشكل مخزٍ. ولما كانت أبواب جحرة الضيوف مغلقة بوجهها، كانت الآنسة (ميلانى) تعود إلى غرفتها معلنة عن غضبها بهمهمة بعض الكلمات بصوت خفيض.. فترسل السيدة (باستيان) زوجها سريعًا ليأمر ابنته بالصمت».

أعتقد أن طبع السيدة (باستيان) المتسلط أسهم بكل أسف فى إصابة ابنتها باختلال ذهنى. كان القس (مونبرون)، الذى يعرف عائلة (باستيان) منذ واحد وثلاثين عاما، يصف السيدة (باستيان) بأنها امرأة غير مستقرة المزاج، قاسية، آمرة ناهية ومستبدة».

كانت علاقته بالعائلة قد توقفت فجأة، وأصيب القس (مونبرون) بالدهشة لعدم رؤيته لا السيدة (باستيان) ولا ابنتها فحاول معرفة إذا كانتا تذهبان إلى كنيسة أخرى أو إذا كانتا مريضتين، فأخبروه أن السيدتين لم تعودا تغادران المنزل ولا حتى للذهاب إلى الكنيسة.

وفى عام 1882 تم استدعاء القس (مونبرون) لتلقين السيد (باستيان) الأب صلواته الأخيرة قبل الموت، فقام هذا الأخير بإطلاعه

على الإجراءات التى كان، حسب قوله، مجبرًا على اتخاذها إزاء وضع ابنته.

يقول القس (مونبرون): «كان السيد (باستيان) متمتعًا بكامل قواه العقلية وتلقى صلوات المباركة الأخيرة وهو فى كامل وعيه. كان يبكى بحرقة، وكان ذلك دليلًا على ندمه الشديد سواء للإذعان إلى متطلبات زوجته المستبدة والتصرف بهذه القسوة، أو إلى اضطراره إخبار الفضائح حيث كان يْردد، ما يعرفه الجميع من تناقل الأخبار، بأن ابنته أصبحت ذات طابع هستيرى، تكشف عن جسدها أمام أى شخص وتطل بهذا الوضع من النوافذ المطلة على الشارع، وهو الأمر الذى يفسر، على حد ظنى، مسألة إغلاق هذه النوافذ بإحكام».

تقول السيدة (مارى برونيه) التى خدمت فى منزل السيد (شارتروه) عام 1883، إن الآنسة (باستيان) كانت ترفض وضع الملابس عليها؛ وكانت تسير فى المنزل بقميص وإزار. فى هذه الآونة، لم تكن مجنونة، على العكس من ذلك كانت تفكر بكثير من الاتزان. لم تكن تتعامل بعنف إلا مع والدتها التى يبدو أنها لم تكن تحبها. فعندما كانت تتجاذب أطراف الحديث معها، سرعان ما تستشيط غضبًا وتصبح قادرة على الإتيان بأفعال عنيفة، لولا تدخل الخادمة (مارى فازى) كانت (ميلانى) تتصرف مع (فازى) ومعى بكثير من الرقة.

قالت لى (مارة فازى) إن السيدة (باستيان) دأبت دائمًا على مضايقة ابنتها، وكانت دائمًا تمنعها من الخروج، حتى فى حياة زوجها. كانت تجد

الحجة المناسبة دائمًا لمنع الأب من اصطحاب ابنته للتنزه.. فلم تكن تريد لـ (ميلانى) أن تتريض بها أنها لم تكن تفعل هى كذلك».

تقول السيدة (ديزوليير): «فى ذلك الوقت (عام 1882) نزلت (ميلانى) ذات مرة إلى قاعة الطعام وتحدثت مع والدتها بكثير من العقل والاتزان، ولكن بمجرد عودتها إلى غرفتها انتابتها حالة من الفزع وكانت ترى الأشباح فى كل مكان. كانت تخيل إليها رؤية رجال جاءوا لاصطحابها، فتصرخ: «القتلة!». وكان المارة فى الطريق يسمعونها».

تقول السيدة (بلانشار): «لو أنكم جئتم أبكر قليلًا.. فى عام 1882 لكنتم سمعتم الآنسة (باستيان) تصرخ بصوت عال قائلة: ألا توجد عدالة! سوف أدخلكم جميعًا إلى السجن، جميعًا، نعم.. جميعًا». وهذا يفسر دون شك مسألة وضع السلاسل الحديدية على النوافذ التى لم تكن طوال الوقت مغلقة.. بل كان المصراعان فقط مغلقين بعارضة حديدية عليها قفل كل ذلك لمنع ظهور الآنسة (ميلانى) عارية أمام المارة فى الشارع.

كانت (ميلانى) تعبر عن غضبها بالصراخ. فتقول لها والدتها إنها إذا استمرت فى الصراخ هكذا سيأتى مفوضو الشرطة لاعتقالها. ولما كانت التهديدات غير كافية، كان يتم استخدام عصا مكنسة يتم تمريرها خارج النافذة للضغط على جرس الباب لدفعها على الاعتقاد بأن مفوض الشرطة هو من يقرع الباب، ولكنها كانت تكتشف الحيلة ولذا بدأت عادة غلق النوافذ تمامًا حتى فى فصل الصيف، على ما يبدو.

تخبرنا (فرجينى نوفو) أن الآنسة (باستيان) كانت دائما تطلب ورقًا وأقلامًا للكتابة، فكانت والدتها تسمح بإعطائها هذه الأشياء، تشرع عندئذ فى كتابة رسالة تضعها فى مظروف وتوجهها إلى عدة أشخاص لا أذكر أسماءهم، ثم تقوم بتمريرها عبر مغلق الشباك فتقع فى الفناء، وتطلب بعد ذلك من (مارى فازى) الطاهية بإرسالها بالبريد.

كانت السيدة (باستيان) تطلب منى عندئذ الخروج من الأب الصغير والدخول مرة أخرى من البوابة الكبرى حتى تعتقد إبنتها صدقًا أننى حملت الرسالة إلى مكتب البريد. كنت أعود لأعطى الرسالة إلى السيدة (باستيان) التى كانت تقول لى إنه لا داعى لفتح هذه الرسائل إذا ما كتبت منها مرة أخرى لأنه لا شىء مهم بها.

«لم تكن الآنسة (باستيان) ترغب برؤية والدتها التى كانت تناديها (بودين) أو (بونين)، وعندما كانت الأم تأتى لرؤيتها خلال الأسبوع كانت تقوم بإلقاء أوانى التبول الليلى تجاهها لتتحطم على السلالم. وعندما فعلت ذلك ذات يوم هددتها السيدة (باستيان) بعدم إعطائها هذه الأوانى مرة أخرى وبأنها ستتركها تحيا وسط قاذوراتها؛ فأجابتها الفتاة بأنها تعيش فى القذارة بالفعل وكانت دائمًا ما تردد أمام والدتها بأنها ليست المفضلة فى هذا المنزل.

إن قراءة هذه التقارير وأقوال الشهود السابقة تسمح لنا بإطلاق حكم أقل قسوة على موقف السيد (باستيان)؛ حيث يبدو لنا حبس شقيقته أمرًا مسببًا... بل ويبدو كذلك، على الأرجح، نوعًا من الانعزال الإرادى لا

الحبس الجبرى، على الرغم من الصراخ والاستغاثة والتناقض الفج فى هذه الشخصية غير المتزنة. علاوة على ذلك، ينجح التقرير الذى أعده السيد (باربييه) فى إثبات أن السيدة (باستيان) لم تكن مذنبة ولا حتى عن طريق فرض آرائها ورغباتها فى هذا الصدد.

يبدو الأمر وكأن السيد والسيدة (باستيان) كانا قد تشبثا فقط ببعض الأفكار البالية، مثلهما فى ذلك مثل كل أبناء جيلهما.

«كان السيد (باستيان) الأب هو صاحب قرار بقاء ابنته فى المنزل لتتلقى الرعاية والعلاج على يدى والديها، بما أن الوضع استمر هكذا طوال ست أو سبع سنوات من وجوده على قيد الحياة.

حتى إنه كان يعبر عن قراره هذا بكثير من البلاغة الأبوية قائلًا للآنسة (كاينكا)، عام 1878،: سأبقى عليها هنا مادمت استطعت المساعدة بعلاجها مع الأطباء».

«كانت السيدة (باستيان) تبدو أكثر تشبثًا بهذه الفكرة من زوجها، وكان وفاؤها لهذا التقليد من جانب زوجها يتضح جليًا عندما كانت تتحدث إلى الآنسة (بيروش) عن مسألة إدخال ابنتها إلى مصحة علاجية، فتقول إنها قد قطعت على نفسها عهدًا بالبقاء بجوار ابنتها حتى وفاتها».

كان التحسن التدريجى فى حالة الآنسة (ميلانى باستيان)، الذى أعقب دخولها المستشفى، يعطى للبعض أملًا فى عودتها إلى رشدها بشكل كامل، أما الأطباء فكان لهم موقف متشكك فى هذا الصدد؛ حيث قالوا: «من الناحية العقلية، نعتبر أن الآنسة (ميلانى) إنسانة مختلة، يتوقف إدراكها العقلى عند مستوى أقل بكثير من الطبيعى».

حاول قاضى التحقيقات استجوابها عدة مرات غير أنها لم تكن أبدًا فى حالة تسمح بحملها على القسم. وعلى الرغم من تلقيها الرعاية اللازمة على مدى شهرين ونصف الشهر بالمستشفيالمركزى، والتى كان من شأنها تحسين حالتها العقلية، باءت محاولة القاضى الأخيرة، فى يوم السادس من أغسطس، بالفشل مثل سابقاتها. ومن ناحية أخرى أعرب الأطباء الشرعيون عن اقتناعهم التام بأن الآنسة (باستيان) لن تعود أبدًا إلى رشدها.

وفيما يلى محضر جلسة يوم السادس من أغسطس:

- أخبرينا باسمك الشخصى واسم عائلتك.

تنفجر الآنسة (باستيان) بالضحك قائلة:

«لا شىء على الإطلاق، لا شىء على الإطلاق»

- هل تدعين (ميلانى باستيان)؟

- ليس هناك شخص واحد فقط يحمل هذا الاسم.

- كم عمرك؟

- لا أريد ذكر كل ذلك.

- أين ولدت؟

تنطق الآنسة (باستيان) بكلمات غير مفهومة، نميز من بينها العبارة الآتية:

«لا يمكن على كل حال أن نبقى هنا طوال الوقت».

- أليس لك شقيق؟

- آه ! بلى.

- هل ذكرت لنا اسم شقيقك؟

تنفجر الآنسة (باستيان) فى الضحك ولا تجيب.

- ألا تريدين ذكر اسمه لنا؟

- كلا.

- أليس شقيقك متزوجًا؟

تجيب عن هذا السؤال بعبارات غير مفهومة.

- ألم تذهبى لحضور حفل زفاف شقيقك فى (مون-دى-مارسان)؟

- آه، بلى!

- هل لك ابنة أخ وهلا ذكرت اسمها لنا؟

- أسفًا عليها.

- ألم تتلقى دروسًا فى البيانو عندما كنت شابة صغيرة على يد الآنسة (جيلبر)؟

- لا أعرفها.

- فى أى مدرسة تلقيت تعليمك؟

- أف... لا يمكننا قول كل شىء.

- ألم يكن والدك يهتم بك ويلقنك دروس اللغة اليونانية؟

- كلا.

- هل كانت خادمتك الشخصية لفترة أطول هى الآنسة (مارى فازى)؟

- ما الذى حل بهذه الخادمة؟ هل توفيت؟

- لا أدرى.

- ما عنوانك فى مدينة (بواتييه)؟

- لا أريد ذكر أى شىء... الكلام ليس دورى أنا.

- ألست قاطنة فى المنزل رقم (21) شارع (لافيزيتاسيون)؟

- أجل، ولكن رقم المنزل هو (14) وليس (21).

- المنزل ملحق به حديقة جميلة، أليس كذلك؟

- بلى، بلى، عندما أعود إلى هناك سأقفز من مكان لآخر.

- فى أى طابق كنت تسكنين؟

بدت الآنسة (باستيان) غاضبة وتفوهت بكلمات لم نستطع تفسيرها.

- هل كانت غرفتك أجمل من تلك؟

- عندما أكون فى «ذلك المكان الكبير العزيز» أكون أفضل من هنا، ولكن يجب أن أنتظر العودة إلى هناك.

- هل تتذكرين والدك؟ هل كان يحبك؟

- آه نعم.

- هل توفى والدك؟

تضحك الآنسة (باستيان) وتقول: «لا أعرف كل ذلك».

- هل تذكرين والدتك؟ هل كانت تحبك؟ وهل كنت تحبينها؟

فى هذه اللحظة يستشيط غضب الآنسة (باستيان) وتقول إنها لا تريد الحديث.

- هل ترغبين فى رؤية والدتك؟

- كلا، من الأفضل أن تبقى حيث هى.

- إذن، أنت لا تحبين والدتك؟

- بلى، بلى، ولكن من الأفضل أن تبقى هناك.

- ألم يخبروك بوفاة والدتك؟

- تضحك الآنسة (باستيان) ولا تجيب شيئًا وبعد مرور عدة دقائق، تقول: هى ما زالت هناك فى «المكان الكبير العزيز».

- هل كان شقيقك يأتى أحيانًا لزيارتك عندما كنت تقطنين فى شارع (لافيزيتاسيون)؟

- نعم، نعم.

- هل كان يحمل إليك الحلوى؟

- هناك، فى ذلك «المنزل الكبير العزيز»، لدينا من الثراء ما يسمح لنا بشراء الحلوى.

(عندما سمعتنا الآنسة (باستيان) نكرر هذه الجملة ليتم تدوينها، انفجرت فى الضحك).

- فى منزلك بشارع (لافيزيتاسيون) هل كنت تنامين على فراش نظيف مفروش بالملاءات البيضاء.

- ما الذى سيقولونه فى «ذلك المكان الكبير العزيز» إذا ما سمعوا ذلك؟

- لماذا دأبت على الاحتفاظ بغطاء على وجهك؟

تنطق الآنسة (باستيان) بكلمات لا نستطيع تميزها.

- هل كان يتم تنظيفك؟ وتمشيط شعرك عندما كنت فى ذلك المنزل بشارع (لافيزيتاسيون)؟

- لم أكن أنا من تحمل شعرًا كثيفًا، كانت فتاة أخرى، هنالك أخريات يحملن نفس الاسم.

(هنالك الكثير من الأجوبة الأخرى التى لا تقل مخالفة للصواب عن الأجوبة السابقة).

* * *

الفصل الثامن

إن كل المعلومات التى سقناها حول هذه القضية الغريبة لم يتم إبراز قيمتها إلا من خلال المذكرة التى تحدثنا عنها آنفًا، التى أعدها السيد (باربييه) محامى (بيير باستيان) وألقاها فى قاعة المحكمة عقب اعتراض موكله على قرار قاضى التحقيقات بإرساله أمام السلطات القضائية المختصة لمحاكمته بتهمة وجناية الحبس مع التعذيب، وهى الجريمة التى يعاقب عليها القانون بالإعدام، وفقًا للمادة (344) من القانون الجنائى.

لا يدهشنا أن يحصل (بيير باستيان) على البراءة عند الاستئناف بعد أن حُكِمَ عليه من قبل محكمة الجنح، ولكن ما يدهشنا هو أن غرفة الاتهام التى قامت بتحويله إلى محكمة الجنح فى السابع من أكتوبر 1901 كانت قد أقرت (لا نعرف كيف) بالآتى:

1) أنه إذا كان هناك انتفاء لدعوى ملاحقة السيد (باستيان) قضائيًا بتهمة الحبس التعسفى، فإن هنالك إثباتات كافية على ممارسته صورًا من العنف الإرادى على شخص شقيقته (ميلانى)، وهو الشىء الذى تعاقب عليه المادة (311) من قانون الجنايات. أو على الأقل أنه شارك فى عمليات

ممارسة العنف المذكورة والمحددة، وذلك بالدعم أو المساعدة المقدمة، على علم منه بذلك، لمرتكب هذه الممارسات العنيفة (؟) وهى جناية وقائع وأفعال تعاقب عليها المادتان (58) و (60) من قانون الجنايات.

ولما لم يتم إثبات شيء من ذلك كما رأينا، اعتبرنا أن ذكر المناقشات والمرافعات التى تمت أمام محكمة الجنح، أمرًا غير ذى أهمية.

وفيما يلى قرار محكمة الاستئناف:

«بعد المداولة بما يتفق مع روح القانون: وبالنظر لما أثبتته التحقيقات والمشاورات من كون حجز الآنسة (باستيان) أو حبسها كان حاجة ضرورية تفرضها حالتها العقلية؛ وكون الرعاية اللازمة لم تنقطع عنها خلال السنوات الأولى من هذا الحجز. غير أنه بعد وفاة والدها تركت (ميلانى باستيان) فريسة للإهمال لسنوات طويلة فى غرفة مظلمة من دون تهوية، فى فراش مقزز، وفى حالة من القذارة التى يستحيل وصفها، كل ذلك على الرغم مما تثبته عدة وثائق من بينها وصية السيدة الأرملة (باستيان) من أن تلك الأخيرة كانت تكن لابنتها مشاعر ود متغيرة ومتقلبة.

وعلى الرغم من كون الطعام الوفير، باهظ الثمن لم ينقصها، فإن غياب الرقابة والرعاية حالا دون استفادتها من ذلك الرغد. حتى إنه لو لم يتدخل المأمور ومفوض الشرطة بالشكل المفاجئ الذى جرت عليه الأمور لوقف تلك الطريقة الوحشية فى معاملتها، لكانت النهاية المحتومة وشيكة الحدوث.

وبالنظر إلى أن هذه الوقائع قد أثارت استنكار الرأى العام وألقت على الأرملة (باستيان) بمسئولية أخلاقية كبيرة لا نستطيع أن نحدد مدى خطورتها.

غير أنه فيما يتعلق بالسيد (بيير باستيان) تحديدًا فإن وقائع القضية لا تقع تحت طائلة ما يعاقب عليه قانون الجنايات.. فلم يثبت على السيد (باستيان) ولا حتى والدته ارتكاب أى من أعمال العنف المعاقب عليها، فيما عدا واقعة الحبس التى استبعدت غرفة الاتهام مبدأها نظرًا لحالة الضحية الذهنية؛ وحتى إذا كان بعض المستشارين يرى هذا الأمر كجنحة عدم إغاثة شخص فى خطر، فهذا مقترن بالواجب الواقع قانونا على مرتكب تلك الجنحة.

وبما أن قانون التاسع عشر من أبريل 1898 يعاقب كل من يحرم قاصرًا يبلغ من العمر خمسة عشر عامًا من الطعام أو الرعاية اللازمين له واللذين هما من حقه، لدرجة تعرض حياته وصحته للخطر؛ فإن هذا القانون الجديد لم يشمل حالات المختلين عقليًا؛ و هو يفترض كذلك أن هذا القاصر الذى تم حرمانه من الرعاية كان قد تم وضعه فى حضانة الشخص ذاته الذى منعها عنه.

وبالنظر إلى أن (باستيان) لم يكن قط متورطًا فى مثل هذا الوضع إزاء شقيقته.

وبالنظر كذلك إلى رفض السيدة (باستيان) الدائم طوال حياتها وحتى فى أواخر أيامها لكل تدخل فى شئونها من شأنه الحد من سيطرتها

المطلقة، خاصة من قبل ولد لا يسكن معها ولا تحبه وكانت قد حرمته من ميراثها؛ ولما كانت فى الفترة الأخيرة قد عهدت إليه بمهمة السهر على راحة شقيقته دون أن يستتبع ذلك أى تخلٍّ عن جزء من سلطتها؛ ولما لم يكن هناك ما يثبت أنها عهدت إليه بهذه المهمة، و هو الشىء الذى طالما نفاه (باستيان) وأكدته شهادات وتصرفات الخدم الذين كان من المفترض أن يسهموا فى تنفيذه.

وبما أنه لم يتم قط إثبات أن المستأنف قد شارك سواء عن إرادة واعية منه أو عمدًا فى أى عمل بدت والدته هى المسئولة الوحيدة عنه؛ وعلى الرغم من إعاقاته الجزئية لا يمكن الدفع بأن السيد (باستيان) كان يجهل الحالة المزرية التى وجدت عليها شقيقته. وعلى ذلك فإن الدور السلبى الذى ارتضاه لنفسه والبرود الانفعالى الذى تعامل مع الوضع متجنبًا أى إجراء إيجابى يستحقان توجيه أشد اللوم إليه؛

غير أن هذا السلوك لكونه لا يقع تحت طائلة القانون الجنائى الذى يحتكم إليه القضاة، فللمحكمة أن تنطق بالحكم النهائى وهو براءة المستأنف. بالاستناد إلى هذه الدفوع.

وفيما يخص الحكم الصادر فى الحادى عشر من شهر أكتوبر 1901 من قبل محكمة جنح (بواتييه)، الذى تم استئنافه أمام هذه المحكمة، يتم إلغاء الحكم السابق ذكره؛ وتبرئ محكمة الاستئناف المذكور (باستيان) من موضوع الاتهام دون تكليفه رسوم القضية.

وهذا ما حكمت به محكمة استئناف (بواتييه) وتم النطق به علنًا فى جلسة الاستماع بتاريخ 20 نوفمبر 1901.

* * *

قضية روديرو

مقدمة

إن المجموعة التى نعرض هنا الجزء الأول(*) منها ليست مجموعة تعرض لقضايا شهيرة. فإن «الجرائم الكبرى» ليست ما يعنينا بالدرجة الأولى؛ وإنما تعنينا القضايا - ليست بالضرورة جنائية - التى تبقى دوافعها غامضة لا يمكن تفسيرها بمجرد الرجوع إلى المناهج التقليدية لعلم النفس، فتظل لغزًا يحير العدالة الإنسانية المعرضة للوقوع فى أفدح الأخطاء إذا ما حاولت تطبيق منهجها التقليدى «ابحث عن المستفيد من الجريمة، تعرف من الجاني».

نذكر على سبيل المثال قضية روديرو، التى نعرضها هنا، إنها قضية غلام وديع، لطيف، معروف عنه سلامته التامة من الناحية الجسدية والعقلية، ابن لأبوين أصحاء، شرفاء يقدم ذلك الغلام فجأة ومن دون أى سبب مفهوم على ذبح سبعة أشخاص.

(*) المقصود هنا مجموعة بعنوان «لاتصدروا حكمكم» نشرت تحت إشراف أندريه جيد، والتى ظهر الجزء الأول منها فى عام ١٩٣٠.

سيقول الأطباء المختصون إنه يتمتع بـ «نفسية سوية» أى غير مَرَضية. ولكن الدافع وراء هذه الجريمة النكراء لم يكن الطمع أو الغيرة أو الكراهية أو الحب الممنوع أو أيًا من كل تلك الأشياء التى يمكن التعرف عليها وتصنيفها.

وبالطبع فإن لكل فعل آدمى حافزًا. ما من عمل يبقى دون مبرر إلا فى الظاهر فقط. ولكننا نجد أنفسنا مجبرين على الاعتراف هنا بأن معارفنا الحالية فى مجال علم النفس لا تسمح لنا بفهم كل شىء، وبأنه ما زال على خارطة النفس البشرية مناطق غير مستكشفة وبقاع مجهولة. والهدف من هذه المجموعة هو لفت الأنظار إلى هذه المناطق، وكذلك المساعدة على أن نتبين بشكل أوضح ما قد بدأ يساورنا الشك فيه.

سوف نعطى أكثر ما يمكننا من المعلومات حول القضايا المطروحة دون خشية إصابة القارئ بالملل. نبغى من وراء ذلك تثقيفه وليس تسليته. سوف نضع أنفسنا أمام الأحداث والوقائع لننقلها ليس كما ينقلها الرسام أو الروائى ولكن عادة ما يكون سرد القصص أكثر تأثيرًا فى النفس إذا كان موجزًا، ولكننا لن ننشغل بالأثر. سوف نبذل أقصى ما عندنا لنتوارى تمامًا مفضلين تقديم عمل وثائقى يتسم بقدر الإمكان بالمصداقية، أقصد بذلك تقديم أحداث غير مفسرة أو مأولة وشهادات مباشرة.

وإنها لعملية محفوفة بالصعاب ونحن مدركون لذلك تماما. فإن المستندات والوثائق من هذا النوع هى دون شك نادرة ويصعب الحصول

عليها بشكل خاص. وعلى هذا فنحن ندعو كل المهتمين بمثل هذه القضايا، الذين قد يكون بإمكانهم إرشادنا إلى مستندات مهمة أو مدنا بها أن يفعلوا ذلك.

I

فى الثلاثين من شهر سبتمبر عام 1913 أقدم الشاب «مارسيل روديرو» البالغ من العمر خمسة عشر عامًا، الذى يعمل خادمًا لدى الزوجين «مابيت» المزارعين فى منطقة شارنت-إنفريئور، أقدم على عملية قتل وحشية راح ضحيتها كل أفراد عائلة «مابيت» بالإضافة إلى خادمة تدعى «مارى دوجا» مجمل القتلى سبعة أشخاص.

فلنذكر أولًا ما يتعلق به الموضوع فى بضع كلمات، والأفضل هو أن نستشهد هنا بهذا الجزء من قرار الاتهام والذى يسرد وقائع الجريمة:

- اعتادت السيدة ديرون وهى ربة منزل من منطقة «با-برياسيه» أن تذهب يوميًا لتتزود بحاجتها من اللبن لدى الزوجين «مابيت» وفى صبيحة الأول من شهر أكتوبر عام 1913 نحو الساعة السابعة صباحا ذهبت كعادتها ولكن أصابتها الدهشة الشديدة عندما وجدت منزل جيرانها هادئًا ومغلقًا.

- عند مدخل المنزل وقف الصغير «بيير مابيت» البالغ من العمر أربع سنوات، كان يجهش بالبكاء ولا يرتدى سوى قميصه.

عندما سُئِل هذا الطفل عن والدته أجاب بأنها داخل المنزل وأنها تنزف بغزارة وكذلك جدته.

ولعلم السيدة «ديرون» بأن السيدة «مابيت» كانت فى مرحلة متقدمة من حملها اعتقدت بأنها تعانى من ولادة مبكرة فانصرفت فى هدوء. وعندما نقل أحدهم ما قاله الطفل إلى السيد «جوهو» اقترب هو الآخر بدوره من المنزل، وبعد أن دفع مصراعى نافذة المطبخ التى كانت منفرجة بعض الشىء، أبصر جثتى السيدة «مابيت» وخادمتها «مارى دوجا» ممددتين على أرضية المطبخ وغارقتين فى بركة من الدماء. عندئذ كان السيد «أوبرون»، وهو جار آخر، قد وصل فانضم إلى «جوهو» ودخل الاثنان إلى المطبخ وتبينا أن الضحيتين قد ذبحتا. وقبل أن يحاولا معرفة ما آلت إليه حال بقية أفراد العائلة المقيمة فى المنزل، انطلق «أوبرون» مسرعًا بدراجته إلى قسم شرطة «لورو-بوترو». وعلى الفور هرع اثنان من أفراد الشرطة إلى قرية (با-برياسيه) ودلفا إلى منزل عائلة «مابيت» حيث كان ينتظرهما مشهد مروع. فقد اكتشفا أن عدد الضحايا فى الواقع ليس اثنين وإنما سبعة. وأن جميع أفراد عائلة «مابيت» وكذلك خادمتهم «مارى دوجا» قد ذبحوا فيما عدا الصغير «بيير».

كانت الجثث مشوهة ببشاعة، وبدا واضحًا جليًا أن الجانى لم يكتف بقتل هؤلاء الضحايا وإنما انهال عليهم بكثير من الوحشية لدرجة استحال معها عد الطعنات التى سددها لكل جثة من فرط عددها وشدة قربها الواحدة من الأخرى.

- اندهش رجال الشرطة لعدم مقابلتهم «مارسيل روديرو»، الذى يعمل هو الآخر فى خدمة الزوجين «مابيت»، فى أى مكان بالمنزل فانطلقوا للبحث عنه وعثروا عليه فى بيت صغير مأهول بالقرب من منزل والديه الواقع على بعد نحو خمسمائة متر من مسرح الجريمة. ولما كان وجهه وقميصه يحملان آثار دماء، تم إلقاء القبض عليه وبعد تردد اعترف بأنه المرتكب الوحيد لكل هذه الجرائم.

- وطوال مدة التحقيق كان «مارسيل روديرو» متمسكًا بالاعترافات التى أدلى بها لرجال الشرطة، وكان قد حدد كذلك أثناء عمليات الاستجواب العديدة التى تعرض لها ظروف ارتكابه لهذه الجرائم.

- فى ليلة الثلاثين من شهر سبتمبر نحو الساعة العاشرة مساءً، كان هو والسيد «مابيت» يعملان معًا فى المعصرة. كان سيده ممسكًا بمقبض تشغيل العصارة، بينما وقف الصبى «روديرو» على المَصْطبة يساعده فى العمل ويدعم جهوده. ولما كان الخادم يبدى قليلًا من الحماس فى العمل قام «مابيت» بإبداء ملاحظة له ناعتًا إياه بالكسل ومعربًا عن عدم شعوره بالرضا عنه منذ عدة أيام.

- ألقت هذه الملاحظة بالغضب فى نفس «روديرو» الذى غادر مكانه بالمعصرة والتقط مِدَقًّا من الخشب كان فى متناول يده، وهو نوع من الهراوات الطويلة التى يبلغ طولها خمسين سنتيمترًا،

وانهال بعدة ضربات على رأس سيده الذى ترك ذراع التشغيل وخر واقعًا وهو يئن. ولما رأى «روديرو» أنه ما زال حيًا تناول ساطورًا عملاقًا يعرف فى الريف باسم قطاعة العنب وهو لا يستعمل فى حقول العنب وإنما هو مخصص لتجزئة كتل العنب عندما تكومها داخل العصارة.

- إن هذه الآلة الحادة التى تكفى رؤيتها لمعرفة حجم الجراح البشعة التى يمكن أن تسببها، تتكون من نصل حاد جدًا به استدارة عند طرفه ويزن نحو ألفى وخمسمائة جرام ويبلغ طوله خمسة وستين سنتيمترًا وعرضه ثلاثة عشر سنتيمترًا. هذا الفصل مثبت فى ذراع خشبية يبلغ طولها مترًا تقريبًا(*).

- استخدم «روديرو» هذه الأداة لذبح سيده الذى كان يصدر صوتًا عاليًا ولم يلبث أن لفظ أنفاسه الأخيرة.

- يؤكد المتهم أنه كان ينوى فى بداية الأمر الهرب مباشرة بعد ارتكابه لهذه الجريمة الأولى، ولكنه عندما توجه إلى المطبخ،

(*) نظرًا لخطورة الآلة التى استخدمها «روديرو» فى القتل لم تكن الجروح التى أحدثها بضحاياه بسيطة. إن هذه الأداة التى تقترب فى الشبه من المِنجل والبلطة أكثر منه إلى السكين كان لها مفصلة وهذا ما يفسر بسهولة عمق الجروح. من الواضح أن «روديرو» كان قد فقد كل هدوء أعصابه وثباته وأخذ يضرب بلا شفقة. فى بداية الأمر بحثت عن دليل لتعرضه لحالة من فقدان الوعى المؤقت فى كون سلاح جريمته قد انكسر تحديدًا فى اللحظة التى قتل فيها أكثر الضحايا ضعفًا والتى ما كان ليخشى أن تبدى أقل قدر من المقاومة تجاهه. غير أنه بعد التفكير بدا لى أن ذراع قطاعة العنب الطويلة ربما تكون قد ارتطمت بشىء من الحديد أو الخشب المصنوع منه المهد الذى كان يرقد فيه ذلك الطفل ذو العامين من عمره.

ليعيد المصباح المخصص لإضاءة المعصرة، نادت عليه السيدة «مابيت»، التى كانت قد انشغلت فى الحياكة بمساعدة «مارى دوجا»، لتسأله عن زوجها. ولما كان «روديرو» يخشى أن تذهب السيدة «مابيت» إلى المعصرة وتكتشف جثة زوجها، أزمع على التخلص من كل شهود الجريمة فيضمن بهذا الشكل الإفلات من العقاب. وعلى ذلك شرع المتهم فى تنفيذ فكرته فاستدار عائدا إلى المعصرة دون إعطاء إجابة للسيدة «مابيت». وهناك التقط الساطور المغطى بالدماء والذى كان قد استخدمه لتوه ثم عاد به إلى المطبخ وقتل السيدتين.

- أما الجدة فإما أنها لم تكن قد خلدت للنوم بعد أوانها كانت قد استيقظت على إثر المأساة الدائرة على بعد عدة خطوات منها. وفى أى من الاحتمالين لم يكن بإمكانها التوانى فى نجدة زوجة ابنها. ولذا كان يجب أن تقتل هى الأخرى بدورها. وهكذا لم يضع «روديرو» الوقت فأقدم مستنيرًا بضوء مصباحه ومسلحًا بالساطور ليفاجئها ويقتلها.

- بقى الأطفال الثلاثة، التى كانت صرخات الفزع الصادرة عنهم كفيلة بجذب انتباه الجيران. ذُبِحوا جميعًا، حتى ذلك الصغير ذا العامين الذى لم يكن من شأنه أن يثير قلق القاتل وعلى الرغم من ذلك لم يصبه أقل مما أصاب الآخرين. وقد اعترف «روديرو» بنفسه بأنه قد انهال عليه بالضرب بوحشية حتى إن عصا الساطور قد انكسرت لارتطامها بمهده.

- وحده الصغير «بيير مابيت» الذى كان نائمًا فى المطبخ هو الذى أفلت من هذه المجزرة البشعة، ذلك أنه لم يصدر أى صراخ وربما كان ذلك بسبب شدة فزعه أو بسبب استغراقه فى النوم.

- وقد عنى «روديرو» بإعادة الأداة التى استخدمها فى جريمته إلى المعصرة، حيث عثر عليها فى نفس المكان فى اليوم التالى. كما ترك المصباح المغطى ببقع الدماء فوق مثابة البئر الموجودة بفناء المنزل، ثم عاد بعد ذلك إلى حجرته حيث أمضى بقية الليلة وفى الصباح توجه إلى منزل والديه.

- ويؤكد «روديرو» أنه قد شعر بالندم وبرغبة فى الانتحار غرقًا فى أحد المستنقعات الصغيرة المجاورة ولكن على كل حال لم يكن هذا الشعور سوى طيف عابر، وقد يتساءل البعض إذا ما كانت قد عنت لهذا القاتل فكرة أن يبلل حذاءه وطرفى بنطاله لكى تصبح تمثيلية انتحاره(*) أشبه بالحقيقة.

- ينتمى المتهم إلى أسرة شريفة كبيرة العدد. ولم يكن قد التحق بخدمة الزوجين «مابيت» إلا منذ عدة أشهر. كان ذكيًا، يحمل

(*) لم يكن الشك الذى انتاب السيد النائب العام هو نفسه عند الأطباء الشرعيين. ففيما يتعلق بهذه النقطة (محاولة الإنتحار) كما بكل النقاط الأخرى أيضًا بدا لهم «روديرو» الذى لم يكن يحاول التقليل من مسئوليته الجنائية- صادقًا تمامًا، فلنلاحظ أيضًا أن «روديرو» لم يفكر ولو للحظة واحدة، بعد ارتكاب جرائمه، فى الاستيلاء على المال الذى كان موجودًا بكل تأكيد داخل خزانة الملابس، والذى كان من شأنه مساعدته على الهرب كما أنه لم يفكر ولو للحظة واحدة فى الهرب.

شهادة إتمام الدراسة الابتدائية. ولكن رأى فيه بعض الشهود شخصًا قليل الاتصال بالآخرين، ماكرًا وحاقدًا. فحسب رواية سيد يدعى «شيرون» قابل الصبى «روديرو» نحو منتصف شهر يوليو فهنأه لالتحاقه بالعمل لدى الزوجين «مابيت» لكونهما أناسًا كرامًا. أجاب «مارسيل روديرو» بعبارة خطيرة أسهمت الأحداث فى إثباتها: «أنا لا أحبهم، هم قوم يحسن قتلهم؛ لو أن الأمر بيدى لقتلتهم جميعًا وما تركت منهم واحدًا».

. فيما يتعلق بشهادة السيد «شيرون» التى تعد شهادة الإثبات الوحيدة، نبدى بعض الملاحظات.

إن هذا الأقوال التى نقلها تشير وبكل دقة إلى سبق تصميم لهذه الجريمة أو على الأقل شىء من الاستعداد لارتكابها، الشىء الذى يقلل بشكل كبير من غرابتها. كان أحد قراء الـ (إن – أر – إف) المجلة الفرنسية الجديدة قد سلم إلى أوراق القضية (وأود أن أعبر له هنا عن عميق افتنانى). وبعد فحص هذه الأوراق بعناية واهتمام بدا لى أن هذه الأقوال هى محض اختلاف بحت– وبالرغم من ذلك رأى السيد رئيس المحكمة ضرورة لذكرها، وهذا شىء لن نتوقف عنده. ولكن الأمر المخيف حقًا هو أن النيابة العامة لم تستدع للمثول أمام المحلفين سوى شهود مؤيدين للسيد «شيرون»، متجاهلين بذلك كل الباقين، الأمر الذى أضفى طابع الصدق على الأقوال التى نقلها ذلك الشاهد. وتجدر الإشارة إلى أن هؤلاء الأشخاص المؤيدين لسلوك السيد «شيرون» والذين توجه إليهم رجال الشرطة بالسؤال هم: 1) بائع لحم الخنزير الذى كان السيد

«شيرون» يبيعه خنازيره؛ 2) الجزار الذى كان السيد «شيرون» يبيعه ماشيته؛ 3) تاجر آخر كان السيد «شيرون» يعقد معه صفقات منذ زمن طويل. أما الشهود الآخرون الذين لم يظهروا، فكانت شهادتهم كفيلة بأن تغير بشكل كبير رأى المحلفين، لأنها ربما كانت ستظهر السيد «شيرون» بمظهر الرجل الشريف وإنما أيضًا «المتفاخر» «واسع الخيال».

قال أحدهم: «السيد «شيرون» يمتلك عقلية خاصة تحمله على سرد أشياء مختلقة وخيالية. فهو يحب أن يعطى لنفسه دورًا فى كل الأحداث المهمة فى البلد» ألم يذهب «شيرون» فى تخيلاته إلى حد القول بأن الفضل يرجع له فى التصويت على بعض قوانين 1898 والتى استرعت انتباه أهالى هذه المنطقة آنذاك؟

فقد أكد أنه قام بنفسه بتسليم المستند الذى تضمن نتيجة التصويت.

أما فيما يتعلق بجريمة الثلاثين من سبتمبر 1913، التى كان من المنتظر أن تتخذ هى الأخرى أهمية كبيرة فى التاريخ المحلى لمنطقة (لاندرو)، لم يفكر «شيرون» فى بداية الأمر بهذه العبارة التى نقلها أو اختلقها بعد مرور يومين. وإنما أعرب على الفور عن اعتقاده بأن هذه الجريمة لا يمكن أن يكون قد ارتكبها سوى شخص غريب.

نود أن نضيف هنا نقطة أخرى. قلت منذ قليل إنه لم يتم استدعاء أى من الشهود غير المؤيدين لـ «شيرون» ولكنى كنت مخطئًا بهذا الصدد. ذلك أن السيد «بيير بريان» الذى شهد بما نقلته لتوى عن «العقلية الخاصة» للسيد شيرون، لم يتم استدعاؤه إلا عن طريق الخطأ. وإليكم كيفية حدوث ذلك: ظهر أثناء التحقيق شخصان يحملان اسم

«بيير برتان»؛ كان أحدهما شاهدًا مؤيدًا، وهو الذى أراد النائب العام تقديمه وحده لجلسة الاستماع. ولكن عندما ظهر بغتة الشاهد الآخر غير المؤيد الذى يدعى «بيير برتان» أيضًا، بدت على السيد «شيرون» أقصى درجات الضيق ورغبة فى سرعة الفرار. فلتحسنوا فهمى وتدركوا حقيقة مقصدى: أنا لا أبغى مطلقًا من وراء ذلك التقليل من بشاعة الجريمة التى ارتكبها «روديرو» ولكن عندما نواجه قضية على هذا القدر من الأهمية، فإن لنا الحق فى أن نأمل بأن يهتم جانب الإتهام بوضع كل الظروف المحيطة بالجريمة نصب عينى العدالة بما فى ذلك تلك الظروف التى هى فى صالح المتهم، خاصة عندما يكون ذلك الأخير غلامًا لا يملك سوى مساعدة محامى عينته المحكمة للدفاع عنه.

وإذا كنت قد ركزت طويلًا على هذه النقطة فإن ذلك مرجعه أيضًا أن أهمية قضية «روديرو» من الناحية النفسية قد تضعف بصورة كبيرة لو ثبت أن فكرة ارتكاب الجريمة قد استحوذت على عقل القاتل الشاب قبل فترة طويلة، وهذا ما توحى به تلك الأقوال المزيفة. بالإضافة إلى ذلك فإنه من الملاحظ أن هذه هى النقطة الوحيدة التى يعترض «روديرو» بحدة على صحتها. فى الوقت الذى يدلى فيه باعترافات كاملة يؤكد خلالها صحة كل ما نُسِبَ إليه من تهم(*). أما عن تلك العبارات فلم يقلها أبدًا؛ ففكرة ارتكاب تلك الجريمة لم تواته قط قبل وقوعها.

(*) الملاحظ هنا أيضًا هو عدم دقة الصحف بشأن هذه النقطة ونقاط أخرى كثيرة: «ادعى «روديرو» اليوم أنه لم يستخدم أبدًا هذه العبارات بينما يؤكد العديد من الشهود عكس ذلك». (لوجورنال، مارس ١٩١٤).

II

1) كتب هنرى باربى فى لوجورنال (بتاريخ الرابع من أكتوبر 1913): نانت فى الثالث من أكتوبر (برقية من مراسلنا الخاص هناك).

أشرت بالأمس فى نهاية برقيتى إلى أن الجميع هنا يرفضون قبول فكرة أن تكون هذه الملاحظة البسيطة من جانب السيد «مابيت» كافية لتحويل «مارسيل روديرو» إلى قاتل متوحش يذبح سبعة أشخاص، كما صرح هو نفسه بذلك.

وفى الحقيقة لا يوجد لدى هذا الصبى ذى الخمسة عشر عامًا أى من **العيوب الوراثية**(*)، أو أى من سمات الفساد والانحلال التى تميز أى مجرم بالفطرة. فمارسيل روديرو هو الرابع من **بين عشرة إخوة تميزوا جميعًا بالقوة والصحة الجيدة والأمانة والشرف مثل والديهما**. الوالدان من صغار ملاك الأراضى الزراعية وهم مزارعون وزارعو كرم ويعيشون على ناتج محاصيلهم. يقع منزلهم على بعد ثلاثمائة متر فقط من مزرعة آل «مابيت». وهم يتمتعون باحترام الجميع فى البلدة ويقدمون لأولادهم **أفضل النصائح والقدوة الحسنة**.

ولد ابنهم مارسيل جوزيف رينيه، والذى ارتكب ذلك الجرم المخيف مسببًا لهم حالة من الأسى الشديد، فى الرابع والعشرين من يونيو عام 1896. فهو يبلغ إذن من العمر خمسة عشر عامًا وثلاثة أشهر بالضبط.

(*) كل الفقرات المكتوبة بشكل مائل هى ما أردت التركيز عليه أو الإشارة إليه.

لم يكن بطفولته أى شيء غير عادى، كانت كطفولة أى من صبيان الريف الذني ما إن يصلوا إلى سن الرشد حتى ينطلقوا لكسب قوت يومهم بغية تخفيف الأعباء الأسرية.

وقد أعرب عمدة بلدة (لاندرو)، السيد «دى بواجينوك»، والذى كان يعرفه جيدًا، عن عجزه عن تصديق أنه ارتكب هذه الجريمة؛ حيث صرح قائلًا: «كانت العلاقات بين أسرة مارسيل وأسرة «مابيت» ممتازة، ولم يتعرض مارسيل قط حتى ذلك الوقت للتأنيب أو التوبيخ، ربما كان يتمتع بمزاج عصبى بعض الشيء وهذا كل مافى الأمر. يقولون عنه اليوم إنه ماكر ويميل إلى الوحدة، وأعترف بأن أحدًا لم ير فيه هذه الطبائع من قبل. لم يكن يشرب الخمر، باختصار لم يكن هناك أى شيء يدعو للافتراض بأنه قادر على ارتكاب جرم كهذا».

أما عن معلمه السابق بالمدرسة السيد «بيرانجيه» فقد أكد نفس الرأى قائلًا: «كان مستوى ذكاء «روديرو» متوسطًا. وكان دائمًا حسن السير والسلوك. كان تلميذًا نجيبًا أشعر تجاهه دائما بكل الرضا. وعندما كان يتلقى أى تعنيف، لم يكن يثور قط. كان طفلًا يميل إلى الهدوء».

حصل مارسيل على شهادة إتمام المرحلة الابتدائية فى سن الحادية عشرة وترك بعدها المدرسة. بدأ والداه يبحثان له عن مكان يعمل به. ونظرًا لأنه كان أضعف من أن يبدأ بالعمل عند الغرباء، التحق فى البداية بالعمل كحارس للماشية لدى خاله السيد «لوى بوييه» المزارع فى منطقة (لابونيير) التى تبعد كيلو مترين عن (لاندرو). ولأنه كان فى غاية الهدوء

ولا يبدى كسلًا أو استياءً من أى شىء احتفظ به خاله فى خدمته لمدة ثلاث سنوات وكان سعيدًا به.

قضى «مارسيل روديرو» بعد ذلك عشرة أشهر فى العمل لدى أسرته ثم انتقل فى شهر يونيو الماضى للعمل كخادم فى مزرعة «مابيت» بدلا من شقيقه الأكبر الذى ترك الخدمة ليذهب إلى الجيش. وكان راتبه السنوى يبلغ ثلاثمائة وستين فرنكا.

يصرح والده قائلًا: «كان خوافًا لدرجة أنه لا يجرؤ على الخروج ليلًا».

ما الذى حدث خلال هذه الأشهر الثلاثة الأخيرة حتى يتحول ذلك الخجل الوديع، الخواف إلى شخص فظ متعطش للدماء؟

عندما اكتشف الجريمة ذهب الظن إلى أن السرقة هى الدافع وراءها. فقد قبض السيد «مابيت» يوم الأحد الماضى مبلغ ثلاثة آلاف فرنك حصيلة بيع جزء من محصول العنب خاصته. وعلى الرغم من أن المبلغ كان فى متناول يد القاتل فإنه وُجِدَ كاملًا. قام مارسيل إذن بالقتل بدافع الانتقام فقط.

والآن وقد تلاشت تلك الصورة المرعبة لهذه الجريمة بدأ الناس فى (لاندرو) وكذلك فى قرية (با-برايسيه) يتكلمون، وانطلقت الألسنة ومن هذه التقولات تتولد رواية غير منتظرة.

يقال إن (مارسيل روديرو) قد وقع أسير مفاتن الخادمة الشابة «مارى دوجا» التى كانت قد التحقت بخدمة الزوجين «مابيت» منذ ثلاثة أشهر مثله.

ويقولون فى الضيعة أيضا إنه فى صباح يوم وقوع الجريمة حاول «مارسيل روديرو» إغواء الخادمة الشابة، البالغة من العمر خمسة عشر عامًا مثله، وقد جلب عليه ذلك توبيخًا عنيفًا من قبل السيدة «مابيت». ثم جاء السيد «مابيت» هو الآخر، عشية ذلك اليوم، يضيف إلى ما قالته زوجته تأنيبه القاسى والمبرر. ولكن ما مدى دقة هذه الرواية؟ أيًا كان ما حدث، الكلمة الآن متروكة للتحقيق القضائى. وقد كتب قاضى التحقيقات المكلف بدراسة القضية السيد «ماليه» إلى نقيب المحامين فى نانت يطلب منه تعيين محامو للدفاع عن «مارسيل روديرو» وقد قام نقيب المحامين بإسناد هذه المهمة إلى السيد «أبيل ديرون».

هنرى باربى

جريدة لوجورنال، الرابع من أكتوبر 1913

2) أما مراسل (لوتون) فقد كتب لجريدته:

أقيمت بالأمس فى الساعة الثالثة جنازة ومراسم دفن ضحايا جريمة (لاندرو) وسط حضور جموع غفيرة. وقد أمر القاضى بوضع الشمع الأحمر على المنزل الكئيب الذى كان مسرحًا للجريمة، وقد صرح عمدة (لاندرو) بأنه كان يعرف «روديرو» جيدًا، وأن لا شىء لدى ذلك الشاب يشير إلى استعداد لارتكاب مثل هذه الجرائم. وهو ليس ماكرًا ولا ميالًا للوحدة كما يحلو للبعض أن يزعموا الآن. كانت لديه صداقات ولم يكن يشرب الخمر.

غير أنه فى الفترة الأخيرة استحق «روديرو» بعض التعنيف من جانب مخدومه، وربما كان هذا التعنيف سببًا فى إثارة غضبه لدرجة جعلته يفقد صوابه.

من ناحية أخرى صرح معلم «روديرو» السابق بالمدرسة أنه على الرغم من أن مستوى ذكائه كان متوسطًا، فإنه كان تلميذًا نجيبًا يشعره دومًا بالرضا. وقد اجتاز بنجاح امتحان شهادة إتمام الدراسة الابتدائية. كذلك أعرب مدير المدرسة عن دهشته لسماع خبر هذه الجريمة. وقد أعلن الأطباء الشرعيون أنهم لم يشهدوا مثل هذه الضراوة فى ارتكاب الجرائم إلا نادرًا. فقد استحال عليهم عند فحص بعض الجثث تبين ترتيب الطعنات وعددها. يبدو أن «روديرو» قد سدد ما لا يقل عن خمسين أو ستين طعنة للسبعة أفراد الذين قام بذبحهم.

استخدم القاتل لارتكاب جريمته قطاعة عنب يبلغ طولها خمسين سنتيمترا. مقبض القطاعة أطول من النصل الذى يتخذ انحناءة عن طرفه ليصبح بذلك شديد الشبه باليطقان (سيف تركى محدب) وقد أمضى القاتل ليلة هادئة جدًا فى سجن نانت. وبما أنه لم يتجدد بعد من سيدافع عنه فلن يتم استجوابه قبل الاثنين المقبل.

(لوثون الرابع من أكتوبر 1913)

3) كما نشرت (لوتون) أيضًا الخبر التالى:

كتب مراسلنا فى نانت:

أسند نقيب المحامين مهمة الدفاع عن مارسيل روديرو إلى السيد «أبيل ديرون». وتُطبق على «روديرو» المادتان رقم 66، 67 من القانون الجنائى والمصوغتان على النحو التالى:

مادة رقم (66) – فى حالة ما إذا كان المتهم دون الستة عشر عامًا وتقرر أنه تصرف دون تمييز منه، تتم تبرئته، على أن يتم وفقًا للظروف

إما تسليمه لوالديه أو إيداعه إصلاحية تتم تربيته واحتجازه بها لفترة من الوقت لا تتعدى بلوغه عامه العشرين.

مادة رقم (67) على العكس من ذلك، إذا كان المتهم قد ارتكب جريمته بوعى وتمييز كاملين، فإن وضعه يتحدد بناء على العقوبة التى ينالها. فإذا كانت هذه العقوبة هى الإعدام أو الأشغال الشاقة المؤبدة يتم إذن الحكم عليه بالسجن مدة تتراوح من عشر إلى عشرين عامًا داخل إحدى الإصلاحيات. أما إذا كانت العقوبة هى الأشغال الشاقة غير المؤبدة أو السجن الانفرادى فإنه يتم الحكم عليه بالحبس داخل إحدى الإصلاحيات لمدة مساوية لثلث المدة التى كان سيقضيها فى السجن، وهذا على أقل تقدير أو لنصف المدة على أقصى تقدير.

وعلى ذلك فإن أقصى عقوبة قد يتعرض لها سفاح (لاندرو) هى عشرين عامًا من السجن.

بدأت الدوافع المنظور فيها منذ وقوع الجريمة فى التلاشى الواحد تلو الآخر. ذهب الظن إلى دافع السرقة حيث كان مخدوم «روديرو» قد حصل يوم الأحد على مبلغ ألفي فرنك حصيلة بيع نبيذه. غير أن المال قد عُثِرَ عليه كاملًا. فتم إذن استبعاد هذا الدافع. كذلك فإن فرضية أن تكون العاطفة هى الدافع وراء ارتكاب الجريمة مستبعدة هى الأخرى. يبقى فقط دافع الانتقام؛ مشاعر «روديرو» ضد سيده الذى عنفه بشدة. يبدو أن هذا هو الاتجاه الذى سيوجه إليه قاضى التحقيقات تحرياته.

فى انتظار ما قد يستجد، يبدو القاتل شديد الهدوء فى حبسه، غير مدرك لحجم الجريمة البشعة التى ارتكبها. فهو يأكل وينام بشكل جيد ولا يبدو الندم مسيطرًا عليه.

وقد تلقى بعد ظهيرة يوم الجمعة زيارة من محاميه الذى مكث معه مدة طويلة إلى حد ما.

(لوتون، الخامس من أكتوبر 1913).

III

تقرير الأطباء الشرعيين

أفسح المجال الآن للأطباء الشرعيين (السيداين أ. كولير دم - ديكلو). جاء تقريرهما مهمًا وسوف أنقله هنا طوال عرضى للقضية آملًا أن يكون ذلك مدعاة امتنان:

(إن ما يميز تلك المأساة الفظيعة هو أن أسبابها لا تمت بصلة للأسباب والظروف التقليدية المعروفة لجرائم فترة الصبا. فهى ليست نتاج عوامل وراثية ولا تأثير الوسط، فمرتكب هذه الجريمة ليست له صفات أو سوابق وراثية سيئة؛ لقد تربى فى وسط لا غبار عليه ولم يتلق سوى المبادئ السليمة والقدوة الطيبة. وهى أيضًا ليست نتيجة لإحدى العلل الناكصة المنتشرة عند شباب المجرمين، أو رغبة فطرية لارتكاب الشر أو حالة من التغيب النفسى أو انعدام الضمير الأخلاقى: فى الواقع، لا شىء من السوابق المرضية لذلك القاتل الشاب يسمح بقبول تلك

النظرية. ومن الملاحظ أيضًا أن أيًا من الأشخاص المحيطين به أو الذين أشرفوا على تربيته لم يقدمه أثناء المحاكمة على أنه مصاب بأى مرض من الناحية العقلية.

كل الذين عرفوه أو تعاملوا معه اتفقوا على القول بأنه شديد الذكاء، مجتهد فى عمله، بعيد عن الشر والرذيلة. غير أنه هناك نقطة مهمة يجدر ذكرها هنا: هناك شبه إجماع بين الشهود على أن هذا الشاب ذو طابع منغلق، كتوم، صعب المراس بعض الشيء وماكر(*).

(كما أنه لا يعانى من أى عيب جسدى على الرغم من الأوصاف المنافية للحقيقة التى أوردتها بعض الصحف التى تناولت القضية. فتذكر إحداها «إن ذلك الصبى هو تقريبا طفل لم يكتمل نموه البدنى. فلو لم يكن الحاجز الذى يفصل بين مقعد المتهم وساحة المحكمة مفرغًا لما تمكننا من رؤيته وهو جالس. وعندما يقف يبدو صغير الحجم. هذا ويبلغ طول «روديرو» مترًا وخمسمائة وأربعة وثمانين سنتيمترًا، متخطيًا بذلك بخمسة سنتيمترات متوسط طول الغلمان فى سن السادسة عشر حسب مقياس «كيتليه». وتواصل الجريدة ذاتها وصف «روديرو» كالتالى: «الرأس ضخم والشعر أشقر تسقط خصلاته على جبهة منخفضة ومقببة، الأنف مستقيم والفم واسع يعطيان للوجه مظهرًا جانبيًا مائلًا(**)».

(*) هنالك طبع آخر تعجبت لعدم ذكره هنا وأنوى العودة إليه مرة أخرى: ذكر البعض أن «مارسيل روديرو» خائف. وربما كان خوفه من النوع الذى يتحول إلى «عصبية مفرطة».

(**) الجريدة المقصودة هى (لوتون) الثانى من أكتوبر ١٩١٣، ليس سواها. وليس أفضل من ذلك مثالًا على الأخطاء الناجمة عن الأحكام المسبقة المغلوطة.

ليس فى هذه التفاصيل أى شىء من الدقة وهى بعيدة كل البعد عن الحقيقة. فالجبهة ليست منخفضة ولا محدبة، وأكثر من ذلك فإن الوجه ليس مائلًا. تعتبر بنية وتشكيل الرأس والوجه فى المجمل طبيعية جدًا؛ ولا يلاحظ فيهما أى وجود لأقل علامة من العلامات التى يتم عادة التعرف إلى المجرمين عن طريقها. وقد تكرر الخطأ ذاته فيما يتعلق بالأذنين اللتين يصفهما المقال المشار إليه بأنهما كبيرتان. وحسب ما تسجله بطاقة أوصاف المتهم، يبلغ ارتفاع الأذنين ستة سنتيمترات؛ وهما متناسقتان تمامًا ومتناسبتان فى الحجم. وهما غير منفصلتين عن الجمجمة. وتعتبر الصفة الوحيدة التى تميزهما هى عقدة (أو حديبة) داروين والتى تعد دون شك استثناءً ولكن ليس خروجًا عن القياس.

- اقتربت جريدة أخرى من الحقيقة أكثر عندما وصفت القاتل بالطريقة التالية: «أشقر، أشقر جدًا، ذا عينين زرقاوين، وهو صبى لطيف، فمظهره أبعد ما يكون عن الفظاظة التى يتفق الجميع عادة على توفرها عند القتلى»(*).

- إن هذا الصبى منغلق على نفسه وماكر: هذا هو كل ما تم التوصل إليه لتفسير جريمته، والأكثر غرابة من ذلك هو أنه قبل ذلك اليوم لم يعن لأحد أن يتهمه فى طبائعه بهذا الشكل. لم ير والداه منه هذا الوجه قط؛ وكذلك معلمه الذى قام بتدريسه على مدى ست سنوات.

(*) لوفار دى لا لوار، الثانى من أكتوبر ١٩١٣.

ما من شك فى أن الظروف الموجبة لتلك المجزرة المرعبة كانت حالة النزق التى تميز تلك السنوات الحرجة الخطرة من فترة المراهقة وتوفر أداة الموت البشعة، التى يطلقون عليها فى هذه المنطقة «سكين العنب» التى تجمع فى الشبه ما بين المنجل والبلطة، فى متناول يده.

تعد الجريمة التى اقترفها الشاب «روديرو» من أنكر وأبشع الجرائم التى يمكن لبشر تخيلها. ففى الساعة العاشرة والنصف من ليلة الثلاثين من سبتمبر 1913، بينما كان «روديرو» منشغلًا بالعمل فى المعصرة مع مخدومه، وجه له هذا الأخير بعض اللوم بخصوص عمله، فانهال عليه بالضرب بمدق ثم ذبحه بسكين العنب، ثم ذهب بعد ذلك إلى محل إقامة عائلة مخدومة حيث قتل تباعًا وبنفس الطريقة السيدة «مابيت» وحماتها وثلاثة من أطفالها فى ثورة من العنف غير المسبوق. لن نركز أكثر من ذلك هنا على الوصف التفصيلى لهذه المأساة التى نرجئ دراسة كل ظروفها وملابساتها إلى فيما بعد.

وقد لجأنا إلى والدى المتهم طلبًا لبعض المعلومات حول سوابقه الوراثية والشخصية وخرجنا بما يلى:

لم يصب أى من أسلافه المباشرين أو أجدادهم أو حتى الأقارب بالنسب من الجانبين بأى داء أو مرض متعلق بالعته أو التشنجات. ليس من بين هؤلاء أيضًا من هم غريبو الأطوار أو مدمنو كحوليات.

الوالد والوالدة بصحة جيدة، ذوا بنية صلبة متينة. ولم يتعرض أى منهما إلى الإصابة بمرض يهدد تكوينهما البدنى أو وظائفهما العقلية.

أنجبا أحد عشر ابنًا، ظل عشرة منهم أحياء، ستة صبية وأربع فتيات. أكبرهم فتاة تبلغ من العمر واحـدًا وعشرين عامًا وأصغرهم فتاة أيضًا عمرها ثمانية عشر شهرًا. أما الابن الثالث فكان صبيًا توفى بعد أربعة أيام من ولادته. ويعد المتهم هو الخامس فى ترتيب ميلاد الأطفال. وقد كانت عمليات حمل الأم وولادتها تمر بمنتهى الطبيعية. ولم يصب أى من الأطفال بأمراض خطيرة سواء عامة أو خاصة بالجهاز العصبى المركزى ووظائف المخ. جميعهم ذوو بنية قوية وليس هناك ما يشوب صحتهم.

وفيما عدا بعض المتاعب المعروفة فى فترة الطفولة لم يصب المتهم «مارسيل» بأى مرض آخر سوى أزمة روماتيزمية فى سبتمبر 1912، بينما كان يعمل فى خدمة السيد بـ...، حيث أصابه ارتفاع فى درجة الحرارة وآلام فى المفاصل؛ الركبة بصفة أساسية والتى لم يصبها التورم مع ذلك. ظل مريضًا لمدة ثمانية أيام ثم عاد للعمل بعد خمسة عشر يومًا من بداية المرض.

هو غلام ذكى، حاصل على شهادة إتمام الدراسة الإبتدائية. ولم يشك أى من المتعاملين معه منه سواء كانوا مخدوميه أم رفاقه أو أهالى بلدته. لم يبد قط أى ميول شريرة. وهو ليس من محبى الشجار ولم يتصرف قط بفظاظة مع الحيوانات.

- يعترف والداه بأنه عصبى المزاج بعض الشيء، حاد، نشيط وحَرِك ولكن دون شر أو أذية. وهو خائف بالمعنى العام للكلمة(*). ولم يمكن للوالدين أن يكونا أكثر تحديدًا بشأن هذه النقطة وهذه الصفة. لم يكن بمارسيل أى ميل للمجون ولم يكن يشرب الخمر وكان يقضى أيام العطلات فى اللعب مع رفاقه. ولم يتبين والداه لديه إفراطًا فى الميل إلى القراءة. لقد قضى معهم عطلة نهاية الأسبوع السابق لوقوع الجريمة لم يلحظوا عليه أى شىء غريب أو غير مألوف. كذلك فإنه لم يشك أمامهم من مخدومه السيد «مابيت» وقد أصابتهم الجريمة بدهشة عميقة ولا يجدون لها تفسيرًا.

(*) ركز بعض الشهود على هذا الاستعداد الفطرى للخوف الذى اتصف به «روديرو»، وعجب أن أقول إن تلك النقطة، أثرت فىّ بشكل خاص فقد استطعت أن الاحظ، أثناء تربيتى لكلب صغير عصبى المزاج وسريع الخوف، كيف كان خوفه يتحول بمنتهى التلقائية إلى شر وعدوانية. فقد كان ذلك الكلب ينتفض لأقل صوت غير مألوف ويدخل على الفور فى حالة من التأهب للدفاع عن النفس، ولذا أجد من السهل تصديق أنه فى حالة روديرو كان الخوف السبب فى فقدانه للصواب إلى هذه الدرجة. وإذا كان علم الأجنة هو حقًا كما ألمح إلى ذلك بمنتهى البلاغة العالم أجاسيز فى كتابه (حول التصنيف فى علم الحيوان)، دا هذا العلم له فضل كبير وعظيم فى إبراز بعض الروابط والعلاقات التى كانت لا تزال مجهولة تمامًا بين بعض الفصائل الحيوانية شديدة الاختلاف، فأنا أعتقد أن هذا العلم بإمكانه أيضًا أن يكون شديد النفع إذا ما طبق لدراسة بعض الأحاسيس وهى فى طور التكوين (الطور الأجنة إذا جاز التعبير). فالخوف هو من دون شك الجين الذى خلف تلك الحالة من الجنون الخاطف التى دفعت «روديرو» إلى ارتكاب الجريمة. وإن لى ابن أخ سلك مسلك الأبطال خلال الحرب كان ولا يزال مقتنعًا بأن شعور الخوف أيضًا هو الذى كان يثيره كجندى لدرجة تجعله يقدم على تصرفات مشابهة لتصرفات روديرو. وقد استحق عن ذلك وسام الحرب.

وإذا ما قارننا بين هذه المعلومات وبين المعلومات الموجودة فى ملف القضية، ومنها المنقول عن السلطات أو عن الشهود المستجوبين خلال التحقيق، لوجدنا أنه لا اختلاف بينهما على أى من النقاط الأساسية.

صرح قاضى «لورو-بوترو» فى مذكرة البيانات الخاصة بالمتهم التى أعدها أنه رد «لا يوجد لديه أى عيب أساسى، ولكنه ذو طابع عصبى بعض الشىء، ماكر أحيانا».

وقد أدلى المعلم الذى أشرف على تنشئته بالأقوال التالية: كان مستوى ذكاء «روديرو» فوق المتوسط بقليل، وكان تلميذًا نجيبًا نادرًا ما يتعرض للعقاب. وأثناء ارتياده للمدرسة لم يكن موضع شكوى من أى نوع. كان حسن الخلق ولا يبدو عليه المكر. كان حسن السلوك أيضًا ولم يكن موضعًا لأى ملاحظة سلبية فيما يتعلق بالاستقامة والخلق.

ولم تختلف أقوال أى من الشهود بشكل ملحوظ عن أقوال المُعَلِم سوى عند نقطة واحدة: الطباع.

الشاهد ب...، وهو خاله الذى وفر له عملًا واستقبله عنده منذ سن الحادية عشرة وحتى الرابعة عشر، لم ير أى داعٍ للشكوى منه. ولكنه وصفه بأنه قليل الكلام، ماكر.

أما الشاهد ج...، وهو جار الشاهد السابق، فقد عرف «مارسيل» جيدًا ووصفه فى أقواله بأنه كان حسن السير، مجتهد فى عمله

ولكنه ذو طبع «منغلق تماما» وكثيرًا ما كان يعزف عن الإجابة إذا وجه له أحد الكلام.

- كما صرح الشاهد ب...، الذى كان أحد مرؤوسيه بأنه كان شديد الذكاء ولكنه كان أيضًا «ماكرًا ومنفصلًا عن الآخرين».

- ركز جميع الشهود الآخرين على هذه الخاصية فى طبع الجانى، ولكن أحـدًا لم يذكر أى معلومة سلبية بخصوص ميوله وأخلاقه.

- لم تبد السيدة ب...ر...، زوجة الشاهد السابق، أى ملاحظة سلبية بشأن طباع المتهم أو عمله أو سلوكه. بل أضافت أنها لم تلاحظ بالمرة أنه يتصف بالعنف.

- هنالك أقوال لأحد الشهود من شأنها، إذا كانت حقيقية، أن تظهر جوانب النقص والعيوب فى شخصية «مارسيل روديرو: «إنها أقوال الشاهد شـ... الذى حين قابل المتهم فى منتصف شهر يوليو وعلم أنه إلتحق بالعمل لدى آل «مابيت»، قام بتهنئته لكون هذين الزوجين من «خيرة القوم» فأجاب المتهم، حسب قول الشاهد: «أنا لا أحبهما، هم قوم يحسن قتلهم؛ لو أن الأمر بيدى لقتلتهم جميعًا وما تركت أحدًا منهم» وأضاف الشاهد أن «روديرو» كان «يتكلم بنبرة حادة جدًا وبدا واقعًا تحت تأثير حالة من الضيق» وأن مثل هذا القول الصادر تحت تأثير الغضب يكشف، بما لايدع مجالًا للشك عن مزاج حاد وميل للانتقام. هذا ويجب ألا ننسى أن المتهم ينفى بشدة قوله لهذه العبارات.

- فى مجمل القول، كانت الملاحظة الوحيدة التى تم إبداؤها حول عقلية «روديرو» تتعلق بشخصيته. ثم أنه ليس هناك إجماع أيضًا حول هذه النقطة. فالمعلم، الذى هو فى مكانة تسمح له، أكثر من غيره، بتقييم شخصية وطباع غلام تابعه لمدة لا تقل عن خمس أو ست سنوات، لم يلاحظ عليه اتصافه بالمكر؛ وكذلك والده الذى نفى تمامًا أن يكون ولده «ماكرًا أو حقودًا». أضافت السيدة ب.. ر، وهى أحد الشهود السابق ذكرهم، أنه كان يقرأ كثيرًا دون أن تستطيع تحديد نوع القراءات التى كانت تستهويه. كما أفاد الشاهد ج... فى أقواله: «علمت اليوم فقط أنه كان يعكف على قراءات سيئة»، ولكن هذه الشهادة لم تكن بالطبع سوى صدى لأقوال الشاهدة السابقة. وقد تبينا على كل حال أن هذه المعلومة لا يجب أن تسترعى انتباهنا؛ ذلك أن قراءات «روديرو» كانت قاصرة على جريدة محلية والطابع. فهو لم يقرأ قط تلك الروايات الشائعة التى تدور موضوعاتها تحديدًا حول قصص الجرائم وحوادث القتل.

- كان «روديرو» يبلغ من العمر خمسة عشر عامًا وأربعة أشهر يوم ارتكابه لتلك الجرائم المنسوبة إليه. يبلغ طوله مترًا وخمسمائة وأربعة وثمانين سم وهو بصحة جيدة، مظهره عادى يخلو من أى علامات مرضية تدل على نقص أو عيب. لا يوجد أى تشوه فى الجمجمة أو الحَنَكْ. الأذنان متناسقان. القلب والرئتان سليمان. حجم الكبد والطحال طبيعى. الجهاز العضلى مكتمل النمو

بشكل مُرضٍ. وبوجه عام فإن القدرة الحركية لا يشوبها أى عيب. الحساسية العامة تجاه الأشياء سليمة فى مختلف صورها: اللمس، الإحساس بالألم وتمييز الساخن من البارد. كما أن الأعضاء الخاصة بالحواس خالية من أى عيب أو تشوه؛ وبصفة خاصة فإن التمييز بين الألوان لم يضعف. أما عن ردود الفعل فقد تم اختبارها بالطرق الطبية التقليدية وهى تنم عن حالة بدنية سليمة.

- وقد كان تصرفه فى وجودنا تصرف طفل خَجِل؟ يصعب حمله على رفع عينيه عن الأرض. فى البداية، يتكلم بصوت خفيض وغالبًا بكلمات أحادية المقطع؛ ولكن مع بعض الإصرار كنا نحصل على إجابات أكثر وضوحًا. هذا ولم يلاحظ فريق العمل الخاص بالسجن طوال فترة حجزه هناك أى شىء غير مألوف لديه من الناحية العقلية. لا شىء سوى أنه سريعًا ما يصبح عابسًا مكفهرًا إذا وُجِهَ إليه أى ملحوظة أو تأنيب. وهو يشارك بطبيعية فى الحياة العامة ويحترم النظام مثل بقية المساجين.

- كما لم تصب حساسيته الأخلاقية بأى خلل أو اضطراب. فهو يذرف الدمع عندما يتذكر والدته أو أحد أشقائه وهو الذى سافر إلى الجزائر لتأدية خدمته العسكرية. أما بشأن الأفعال التى اقترفها فهو يبدى ندمًا يبدو صادقًا وحقيقيًا. وسوف نرى لاحقًا أنه لا يجهل مشاعر الندم.

- وهو يجيب بفطنة تامة عن جميع الأسئلة التى نطرحها عليه. كما أنه على وعى كامل بالوقت والمكان وعباراته تدل على ذكاء ومعرفة أولية جيدة بالتاريخ والجغرافيا وقواعد اللغة والحساب. وكل الإجابات التى قدمها لنا بخصوص حياته السابقة ومرؤوسيه وعمله ورواتبه كانت مضبوطة أو معقولة.

- لم يسرف قط فى تناول الخمور مما يجعل من الصعب التكهن بحالته إذا أصابه السكر. كان يخالط الغلمان من سنه، ويتقابل معهم أيام الأحاد ليلعبوا الورق؛ وكان المكسب أو الخسارة لايتعدى عشرة فلسات. ولم يكن يرتاد الملاهى الراقصة.

- لم يخالط الفتيات قط ولم تكن له أى علاقات جنسية. كانت خادمة مرؤوسيه الشابة مجرد زميلة عمل بالنسبة له، ولم يكن يحمل لها أى مشاعر خاصة ولم يغازلها قط.

- لم تكن له أى اهتمامات عاطفية ولم تعرف الأفكار المتسلطة أو الاستحواذية طريقها إليه، وأيًا كانت أسئلتنا حول هذه المسائل كانت الإجابات تأتى سلبية تمامًا.

- غير أن هناك صفة أخرى أشار إليها والده، فقد اعترف بكونه خوافًا أنه يخشى الظلام ولا يعرف والده إن كان ذلك قد يمنعه من الذهاب ليلًا لقضاء أى حاجة بعيدًا عن منزله. إذا أعطاه أحد الأمر بذلك «ما كان ليوافق على الذهاب». وأن هذا الانطباع مبهم وغير محدد ليس به شىء من المنهجية ولايندرج تحت ما

يسمى فى علم النفس بـ الرهاب. وهو لا يخشى الأشباح أو عودة الموتى، وليس من المحتمل أن يصيبه الخوف إذا مر بجوار المقابر. كما أنه لا يخشى السحرة ولا يعرف أيًا منهم فى بلدته. مجمل القول إن خوفه من النوع العادى البسيط ربما كان مفرطًا بالنسبة لصبى فى مثل سنه. وإذا كان ذلك مؤشرًا على العصبية فهو ليس علامة مرضية.

- وبسؤاله عن مشاعره تجاه سيده وأسرته صرح قطعيًا بأنه لم يشتك منهم قط، ولم تتعاظم بداخله أى مشاعر حقد أو كراهية تجاههم. فقد كان على وفاق مع زوجة سيده والخادمة الشابة. وبداية من موسم قطاف العنب فقط بدأ سيده يصرخ فيه بعض المرات ويسبه. وهو ينفى تمامًا الأقوال التى ينسبها إليه الشاهد ش...، والتى لا تدعو إلى الاعتقاد بأنه كان يضمر لهم منذ فترة طويلة مشاعر العداء والبغض ويفكر مليًا فى الانتقام منهم.

- وقد أصررنا كثيرًا لمعرفة إذا ما كان المتهم قد أفرط نهار وقوع الجريمة فى شرب النبيذ بشكل غير مسبوق لدعم قواه. كانت إجاباته التى تكررت عدة مرات وفى مواقف مختلفة وبقيت دائمًا واحدة لا تتغير، تؤكد أنه لم يتناول النبيذ إلا فى ساعات الوجبات وبكميات طبيعية، نحو كأسين من النبيذ الأحمر فى كل مرة. وقبل العشاء فقط تناول مع سيده كأسين من النبيذ الأبيض المعتق. وأن هذه المعلومة مطابقة لما ورد فى التحقيق وفى الواقع تم العثور على زجاجة نبيذ أبيض ينقص منها ثلث محتواها فى مخزن المؤن.

فالمتهم يؤكد إذن- ونحن نعتقد أن هذا الأمر يعتبر صحيحًا- أنه لم يكن تحت تأثير الكحوليات المثير وقت ارتكاب الجريمة.

- أما فيما يتعلق بالجريمة فقد بقيت تفسيراته ثابتة لا تتغير. كان هو ومخدومه السيد «مابيت» يقومان بتشغيل المعصرة. كان «مابيت» ممسكًا بعصا التشغيل و«روديرو» فوق المصطبة يصلح من وضع البرغى. ولعدم قدرته على إنجاز العمل المطلوب منه بسرعة، صاح فيه سيده ((بأنه أخرقًا وتنبلًا وأنه لا يجيد العمل منذ ثمانية أيام». وعنئذ نزل «روديرو» من مكانه وتناول مدقًا كان فى متناول يده وانهال بضربات على رأس سيده من الخلف. فترك «مابيت» العصا ووقع على الأرض. ولما كان يصدر أنينًا، نظر إليه «روديرو» برهة ثم التقط سكين العنب (نصل ما طويل وعريض حاد جدًا، يبلغ طوله خمسة وستين سنتيمترًا وعرضه ثلاثة عشر سنتيمترًا، ويزن نحو كيلو جرامين وخمسمائة جرام) وذبحه.

- ثم، أخذ المصباح وتوجه إلى المنزل حيث اعتقد أن الجميع به نائمون. ولكن عند وصوله إلى المطبخ، وجد السيدة «مابيت» وخادمتها ما زالتا تعملان بالقرب من الطاولة. فكر فى بداية الأمر فى الهرب ولكن سألته سيدته عن زوجها فخرج دون أن يجيبها وذهب لإحضار سكين العنب، الذى كان قد تركه فى المخزن ثم عاد إلى المطبخ فضرب الخادمة أولًا ثم السيدة «مابيت» كانتا تديران ظهريهما إليه؛ لم يكن هناك وقت لتتكلما؛ ولم تصرخا

إلا فى اللحظة التى طعنتا فيها. ويقول الجانى: «ضربت الخادمة فى منطقة الرقبة فسقطت على الفور، كما ضربت السيدة أيضًا فى منطقة الرقبة فسقطت هى الأخرى. وعندما وقعت على الأرض عاجلتها بضربة من السكين فى بطنها». وفى الغرفتين المجاورتين كانت الجدة تنام فى إحداهما وثلاثة من الأطفال ينامون فى الأخرى، فاستيقظوا بفعل الضجيج وشرعوا فى الصراخ وعندئذ أخذ مصباحه وتوجه أولًا إلى حجرة الجدة وذبحها: «لم تقل شيئًا، لم يمهلها الوقت». ثم انتقل إلى الحجرة الأخرى: «وجهت ضربة إلى رقبة إحدى الفتيات التى كانت تصرخ، فاستيقظت فى هذه اللحظة شقيقتها التى كانت تنام بجوارها فطعنتها هى الأخرى بالسكين. ثم استيقظ الطفل الموضوع فى مهده وبدأ يصرخ هو الآخر، فقتلته(*)». وعند الضربة الأخيرة انكسرت يد أداة القتل، فحمل «روديرو» أجزاءها إلى المخزن بالقرب من العصارة حيث عثر عليها فيما بعد. ولم ينج من هذه المذبحة سوى طفل صغير كان نائمًا فى المطبخ.

- وقد كان التفسير الذي قدمه المتهم لهذه الجريمة الفظيعة واحدًا دائمًا: بالنسبة لسيده، كان السبب وقوعه تحت تأثير ثورة غضب عنيفة، وبعد ارتكاب الجريمة وعند عودته إلى المنزل كان فى غاية

(*) للانتقال من غرفة إلى أخرى كان القاتل يستضىء بواسطة مصباح المعصرة الذى جمله معه من هناك، أما المصباح الذى كانت السيدة وخادمتها تستضيئان به فقد وقع منذ بداية المأساة.

الاضطراب والانفعال ولا يعرف ما الذى يفعله. وعندما سألته سيدته عن زوجها، جن جنونه. وفكر أنها قد تذهب إلى المخزن فتكتشف الجريمة، ولذا أراد التخلص من كل الشهود.

- وها هو فيما يلى نص إجاباته: «شعرت بالخوف من أن تأتى سيدتى للبحث عن زوجها فى المخزن، وقد قتلت الخادمة لأنها كانت بصحبة السيدة...، وقتلت الآخرين لأنهم كانوا يصرخون». إن ما يؤكد صحة هذه الإجابات هى العبارة التالية التى تشهد بصدق ما ذكر من قبل: «لم ألمس الصغير «بيير مابيت» لأنه لم يقل شيئًا وكان نائمًا».

- أما عن تعدد الطعنات الموجهة للضحايا والعنف الذى اتسمت به (الجماجم مهشمة، الوجوه والرقاب ممزقة بوحشية والأعمدة الفقرية مقسمة) فلم يكن فى استطاعته تقديم أى تفسير لذلك. كما أنه لا يستطيع أيضًا أن يفسر السبب الذى دعاه لشق بطن السيدة «مابيت» التى كانت موشكة على وضع طفلها. وإنما يؤكد فقط على أنه لم يفعل ذلك لوقوعه تحت سيطرة فكرة فاحشة أو سادية. إن هذا التصرف لا يختلف فى طبيعته عن تصرفاته الأخرى ولا يعزى إلا لثورة الغضب.

- وبعد أن حمل السكين ومقبضه المكسور إلى المخزن، صعد إلى غرفته وجلس بها. وشيئا فشيئًا استعاد هدوءه واستوعب خطورة الفعل الذى ارتكبه لتوه. وعندئذ شعر بالندم. يقول الجانى: «شعرت بتأنيب الضمير ورغبت فى الانتحار». مكث ساعة فى

غرفته ثم غادرها وفى نيته الانتحار غرقًا فى مستنقع صغير يبعد خمسين مترًا عن المنزل. نزل إلى الماء وخطا بضع خطوات بداخله ولكن خانته شجاعته فعاد إلى غرفته، وبقى بها حتى مطلع النهار. وعندئذ اتجه إلى منزل والديه حيث قبض عليه هناك.

- وتبدو محاولة الانتحار تلك معقولة ظاهريًا، فهى تتوافق مع مشاعر الندم التى شعر بها المتهم. كما أن هناك ما يؤكد على صحتها، وهى واقعة العثور على بنطال مبلل فى غرفة الجانى. باختصار روايته تبدو لنا صادقة؛ فكل تفاصيلها مترابطة بشكل منطقى، كما أن المتهم لا يستخدمها فى محاولة لتقليل مسئوليته الجنائية مثلا.

- علاوة على ذلك تبرهن هذه الرواية بوضوح على وعيه الكامل بالجريمة الواقعة وبمسئوليته عنها. وإذا كان يشعر بالندم فهو يستطيع التمييز بين الخير والشر، وهو يستطيع ذلك خاصة أن مستوى ذكائه ليس فقط طبيعيًا لمن هم فى مثل سنه، بل هو فوق المتوسط حسب ما أدلى به معلمه الذى أشرف على تنشئته. لا يمكن إذن أن يكون هناك شك حول مسألة التمييز أو الإدراك من الناحية القانونية.

- العرض السابق يبين لنا أن «روديرو» لا يعانى من أى خلل عقلى فى الوقت الحالى. وهو يعمد أيضًا إلى إثبات أنه لم يكن واقعًا تحت تأثير أى حالة مرضية على المستوى العقلى لحظة ارتكابه للجرائم المنسوبة إليه. غير أن هذه النقطة تستدعى دراسة عن كثب.

- إن عدد الضحايا والطريقة التى انقض بها القاتل عليها وكذلك العنف والضراوة اللذان قادا ذراعه تستدعى أوليًا التفكير فى حالة الجنون المؤقت التى نلاحظها أحيانًا فى حالات الصرع الكامنة، بصفة استثنائية فى بعض حالات التسمم. ولكنها فرضية لا نستطيع التوقف عندها للأسباب التالية: لم يظهر على «روديرو» قط أقل عرض متصل بمرض الصرع. كما لم يكن تحت تأثير أى حالة تسمم أو أى اضطراب عقلى، بل كان متمتعًا بكل وعيه الذهنى ومدركًا تمام الإدراك لكل تصرفاته أثناء تلك الليلة المشئومة. غير أن فقدان الذاكرة يعتبر أحد الأعراض المميزة لنوبات الجنون المؤقتة تلك. وعلى ذلك فإن الشخص الذى يتصرف تحت تأثير حالة اضطراب عقلى ناجمة عن الصرع لا يستطيع أن يتذكر الأمور الواقعة أثناء هذه الحالة، أو أنه لا يحتفظ فى ذاكرته سوى ببعض الأجزاء المبهمة وغير الواضحة منها.

- إن أقوال الشاهد ش...، والتى جاء فيها أن الجانى أعرب قبل شهرين ونصف الشهر من وقوع الجريمة أن «مرؤوسيه قوم يحسن قتلهم» تشير إلى افتراض جديد من الناحية النفسية: ألم تكن فكرة قتل رب العمل مسيطرة على عقل «روديرو» منذ فترة طويلة؟ أليس من الممكن أن يكون قد خضع لدافع نفسى لايقاوم نحو الجريمة كما هو الحال فى بعض الحالات المعروفة علميًا؟ .

• ولكن من ناحية ينفى «روديرو» هذا القول، ومن ناحية أخرى رأينا أنه لم يكن واقعًا تحت تأثير أى فكرة متسلطة من أى نوع، وأيًا ما كانت تحرياتنا حول هذه النقطة كانت الإجابات تأتى دائمًا «سلبية» ومن ناحية أخرى فإن هذا القول المنسوب لـ «روديرو» يبدو غير واقعى إذا صدر عن شخص تتسلط عليه فكرة معينة. إن الشخص المدفوع بشكل لا يقاوم إلى القتل يعانى معنويًا من ذلك الاستحواذ: فإذا انتقد فإن ذلك لا يكون موجهًا نحو ضحيته وإنما نحو نفسه؛ فهو يتهم نفسه ولا يدين الآخرين. لم يقع «روديرو» إذن تحت سطوة فكرة متسلطة أو دافع محرض لا يقاوم.

• بحثنا من ناحية أخرى عن تبين الحالة البدنية التى كان عليها الجانى لحظة ارتكاب الجريمة. ألم يعان من الإجهاد أو التعب أو ضعف المقاومة العضوية أو العصبية؟ أن العمل فى حصاد العنب وتصنيع النبيذ شاق. وقد علمنا، عن طريق تحرٍ تم بناء على طلبنا، أنه كان يبدأ العمل لدى آل «مابيت» فى الخامسة صباحًا فلا يفرغ منه قبل العاشرة مساءً دون توقف سوى فى الفترات المخصصة لتناول الوجبات. ولكن كشف هذا التحرى أيضًا عن أن أعمال الحصاد قد تمت على عدة مراحل متفرقة تباعد فيما بينها فترات راحة. وقد تمت فى التواريخ التالية: 17، 18، 19 من سبتمبر؛ وتوقفت فى العشرين والحادى والعشرين والثانى والعشرين، لتعود مجددًا من الثالث والعشرين إلى السابع والعشرين. ثم

الأحد الثانى والعشرين كان يوم راحة. وفى التاسع والعشرين اقتصر العمل على جزء من النهار. أما فى الثلاثين وهو يوم وقوع الجريمة فكان العمل مستمرًا طوال النهار. ينتج عن ذلك إذن أنه على الرغم من المشقة التى يمثلها هذا العمل بالنسبة لمراهق فى الخامسة عشر من عمره، فقد كان متقطعًا وليس متواصلًا بالشكل الذى من شأنه إحداث حالة من الإجهاد البدنى والإنهاك العصبى الحقيقى(*).

(*) على الرغم من ذلك يلفت السيد ديرون محامى الدفاع الانتباه إلى أنه كما يقول الخبراء كانت عمليات الحصاد تتم على عدة مراحل متفرقة تباعد بينها فترات راحة. هذا صحيح. ولكن أى فترات تلك؟ فإذا ما راجعنا التواريخ التى جمعها الخبراء والتى حددها لهم شقيق الضحية، السيد مابيت، لاحظنا ما يلى: بدأت عملية الحصاد يوم الأربعاء الواقع فى الأسبوع الثالث من شهر سبتمبر. وقد تم تخصيصا ثلاثة أيام من ذلك الأسبوع للعمل، وهذه الأيام هى الأربعاء ١٧ والخميس ١٨ والجمعة ١٩. ثم تم التوقف عدة أيام ليستأنف العمل فى يوم الثلاثاء من الأسبوع التالى، ودام حتى يوم السبت، وتوقف مرة أخرى فى عطلة نهاية الأسبوع ثم استأنف العمل فى فترة ما بعد الظهيرة من يوم الإثنين. أما عن يوم الثلاثاء فقد بدأ روديرو العمل مع سيده منذ الخامسة صباحا و استمر حتى العاشرة و النصف مساء.
إلى أى مدى كان يطول يوم العمل؟
كان العمل عند أل مابيت يبدأ فى الخامسة صباحا ولا يتوقف إلا فى مواعيد الوجبات ولا ينتهى قبل العاشرة مساء. ينص القانون على ألا يطول يوم العمل لمن هم فى مثل سنه داخل المؤسسات الصناعية عن عشر ساعات. كان يوم العمل بالنسبة لـ روديرو يطول لمدة أربعة عشر أو خمسة عشر ساعة.
أنا لا أتهم مابيت بكونه رب عمل قاسى، فقد كان تصرفه متماشيا مع مجريات الأمور فى المنطقة التى يعيش بها. و قد كان يفرض هذا النظام حتى على نفسه. ولكن يجب أن نذكر هنا كل شىء: فقد كان حريًا به أنْ يفرض هذا الإيقاع فى العمل على عمال تتراوح أعمارهم ما بين الخامسة والعشرين والثلاثين، و لكنه أخطأ بفرضه على فتى عمره خمسة عشر عاما. فأنا لا أعارض إذن ما صرح به الخبراء بموجب السلطة المخولة لهم من أن العمل فى حصاد العنب لم يتسبب فى إجهاد المتهم عصبيا. ولكن عندما قرأت فى

- وأثناء إعدادنا لتقرير الخبرة أطلعنا قاضى التحقيقات على رسالة مجهولة المصدر كان قد تلقاها، وتثير هذه الرسالة انتباهه إلى التأثير المثير للاضطراب الذى تخلفه «الأبخرة المتصاعدة من النبيذ داخل المعصرة حيث يتم إعداده أو حيث يتم تخمره» ووقع ذلك على عقول العاملين بهذا المجال. وعلى الرغم أنه من الناحية الطبية ليس هناك ما يدعونا للاعتقاد بأن لهذا السبب أى دخل بقضية «روديرو» فقد أجرينا تحقيقًا لدى بعض الشخصيات الطبية المتخصصة، ولكننا لم نتلق سوى إجابات بالنفى والسلب. فلم يلحظ أى من الأطباء، الذين قمنا باستشارتهم، أى حالة إثارة أو هياج يمكن أن تعزى إلى تصاعد أبخرة النبيذ. ويفسر ذلك بأن ما ينبعث من عصير العنب عند تخميره هى بالأحرى غازات مخدرة وليست أبخرة منبهة أو مثيرة تكون الغازات السائدة فى هذه الحالة هى الغازات الكربونية، التى من خواصها التسبب فى حالات الاختناق وليس حالات السكر المصحوبة بالعنف.

- على كل حال، فيما يتعلق بـ «روديرو» فقد ثبت أنه منذ بداية العمل فى تصنيع النبيذ، كان يقضى السواد الأعظم من يوم العمل فى الهواء الطلق، فى مزارع الكروم؛ وأن العمل داخل المعصرة لم يكن يشغل سوى سويعات من نهاره. ثبت أيضًا أنه

تقريرهم أن تفسير ما ارتكبه روديرو يرجع إلى استعداد فطرى خاص لسرعة الغضب والهياج، بدا واضحا لى أن الإجهاد هو أحد الأسباب التى صعدت هذا الغضب وزادت من حدته.

فى مساء وقوع الجريمة لم يمض أكثر من ساعة ونصف الساعة داخل المخزن. وقد أكد «روديرو» بنفسه بخصوص هذه النقطة أنه لم يكن لا مضطربًا ولا مثارًا ولا ثملًا عندما ضرب سيده.

من المؤكد قطعًا أنه يجب عدم البحث عن العوامل الحتمية للأفعال التى اقترفها المتهم فى علم النفس المرضى وإنما فى علم النفس الطبيعى لفترة المراهقة. وإن من أبسط المفاهيم والأفكار الكلاسيكية هى تميز مرحلة النمو والبلوغ بتغيرات عميقة ليس فقط فيما يتعلق بالوظائف العضوية وإنما أيضًا الوظائف النفسية: الحساسية، الذكاء والنشاط الإرادى. ففى الوقت نفسه الذى تقل فيه المقاومة البدنية ومناعة الجسم ضد المؤثرات المرضية، يحدث نوع من الفقدان المؤقت للاتزان العقلى مع زيادة مفرطة فى الإحساس بالشخصية: مبالغة فى سرعة التأثر وفرط الحساسية النفسية. يظهر فى هذه الفترة ميل حقيقى إلى حب القتال ومبالغة ملحوظة فى الاندفاع وميل إلى استخدام العنف. يكون المراهق شديد الحساسية للإطراء والمدح، وعلى العكس من ذلك، فهو يستشعر كل ما يجرح كبرياءه وكرامته بشكل أكثر حدة. فتتحول هذه الانطباعات عند وصولها إلى العقل إلى محفزات دافعة، أى تصرفات نزقة. وقد أبدى المتخصصون فى علم نفس البلوغ ملحوظة أن سن الخامسة عشر هى السن التى يتعرض فيه العدد الأكبر من الأشخاص إلى العقاب داخل المؤسسات التعليمية بسبب سوء السلوك والمشاجرات واستخدام وسائل العنف.

حيث يصعب على من هم فى هذه السن كبح جماح تصرفاتهم الانفعالية. كذلك فإنّ عدم التبصر هو السمة الأساسية لحالتهم العقلية. هذا هو الإطار الذى يجد فيه العلم حاليًا السبب الرئيسى لتهيئة القدرة الإجرامية لدى المراهقين فى مرحلة البلوغ.

- إن ما سبق من عرض للأفكار يسمح بفهم مدى العنف الذى قد تصل إليه بعض التقلبات الانفعالية للمراهق، وكم يجب أن نحذر من تطبيق المعايير الخاصة بعقلية البالغين فى محاولة لتفسير تصرفات المراهقين فى مرحلة البلوغ.

- من الطبيعى إذن أن بعض الأفعال التى يصعب تفسيرها، مثل تلك الأفعال المنسوبة إلى المتهم، من الممكن أن تكون نتيجة لحالة عقلية ليس بالضرورة مرضية وإنما هى باختصار، فسيولوجية. ونضيف هنا أن «روديرو» وإن كان لا يعد مختلًا من الناحية النفسية، فإنه بكل تأكيد صاحب مزاج عصبى. ومن الواضح أن أقوال عدد من الشهود أثبتت أنه ذو طابع يتصف بالمكر والذى من الممكن أن يوصف أيضًا بسرعة التأثر والميل إلى الانتقام، وقد أدى كل ذلك من دون شك إلى تفجر الاندفاع والغضب لديه.

- يترتب على ذلك أن نجيب كما يلى عن الأسئلة التى طرحت علينا:

1- لم يكن «مارسيل روديرو» فى حالة من الجنون الذى تنص عليه المادة 64 من القانون الجنائى، عند ارتكابه للجرائم المنسوبة إليه؛

2ـ كما كان يتمتع لحظة وقوع الجريمة بقدرة طبيعية على التمييز ووعى كامل بجميع تصرفاته.

3ـ لم يثبت الفحص النفسى والبيولوجى إصابته بأى مرض عقلى أو نفسى يذكر. إن الخواص المتعلقة بمزاجه وطابعه الشخصى والتى ثبت وجودها لديه لا تخرج عن نطاق الفروق الفردية النفسية وليس من شأنها، حسب ما نرى، إحداث أى تغيير فى شخصية».

نانت، السابع عشر من يناير 1914

كانت مهمة محامى الدفاع قد ازدادت صعوبة بشكل خاص بعد هذا التقرير الطبى الجديد بالملاحظة، الذى قاد «روديرو» إلى أقصى عقوبة. ولم تحُل المرافعة البليغة الرائعة للسيد «دوران» التى سأسوق أجزاء منها فيما بعد، دون الحكم على موكله بالسجن عشرين عامًا.

وإنه لأمر محير حقًا أن نعرف أنه مع الوضع الحالى للقضاء، كان من الأفضل بالنسبة للمتهم أن تتوفر فيه صفات الانحلال التى تميز الأشخاص الذين لديهم استعداد ارتكاب الجرائم. فإن اعتراف الأطباء فى هذه الحالة بعدم مسئوليته عن تصرفاته كان من الممكن أن يسمح للمحلفين بمنحه مزية «الظروف المخففة»؛ التى من شأنها، فى حالة «روديرو» مثلًا التخفيف من الحكم بشكل ملحوظ. ولكن أمام الأسئلة المحددة التى كان على المحلفين أن يجيبوا عنها بنعم أو لا، اضطروا إلى الرد بالإيجاب؛ ولو أنى من بينهم لكنت فعلت أنا أيضًا. ولكن فى الوقت

نفسه كان سيزداد اعتقادى بأن مثل هذه الإجراءات وتلك القوانين التى تبدو أقل صرامة، وبالتالى تترك قدرًا أكبر من الحرية للمجرم الذى لا يستطيع أن يمنع نفسه من القتل أكثر من شخص بسيط أصابه جنون لحظى مؤقت، إن مثل هذه الإجراءات والقوانين تضعف من حماية المجتمع وتبقى حاجتنا إلى تحقيق العدالة رغبة لم تشبع تمامًا. وهنا أتوقف لأنه هناك الكثير مما يقال حول هذه النقطة. ولكن فليسمح لى القارئ أن أستعيد هنا بعض الاعتبارات التى أستعيرها من مرافعة السيد ديرون، محامى الدفاع وبعض الأقوال المأثورة لرجال قانون بارزين استشهد بها فى دفاعه. إن هذه الأفكار الصائبة جدًا بدت وبكل أسف مجرد جدل فارغ فى نظر عدد كبير من المحلفين الذين يتسمون فى كثير من من الأحيان بقلة المعرفة. فمن المعروف أن اختيار هؤلاء متروك للمصادفة وأن مداولات هيئة المحلفين لم تعد، بكل أسف، تثبت أن «الصواب هو أفضل ما يمكن أن يتشارك الناس فيه»، كما كان يزعم ديكارت.

وليس أفضل ولا أنسب من السطور التالية لكى تساعدنا على إدراك قصور العملية القضائية، وهو الشىء الذى نددت بلا معقوليته ومنافاته العقل فى كتابى ذكريات من محكمة الجنايات، وركزت عليه عدة مرات منذ صدور الكتاب.

سنرى من خلال هذه السطور أن المحلف رغبة منه فى إشباع إحساسه بالعدالة، لا يجد مفرًا من الإجابة بـ: لا على الرغم من وضوح كثير من الحقائق، وهذا ما يدفعه فى كثير من الأحيان إلى الإجابة بـ: نعم على الرغم من كل تجسد للعدالة.

ولكن فلنتبين أولًا حجم الجهد الذى بذله محامى الدفاع لفك حلقات تلك العقدة الناتجة عن التقرير الطبى:

- من الخواص المتعلقة بمزاجه وطابعه الشخصى، التى تثبت وجودها لديه لا تخرج عن نطاق الفروق الفردية النفسية وليس من شأنها، حسب ما نرى، إحداث أى تغيير فى شخصيته.

يجيب السيد «ديرون» عن هذه النقطة قائلًا:

- أقبل تمامًا بالجزء الأول من الرأى الذى يبديه الخبراء ها هنا. فحقا لم يدل الفحص النفسى والبيولوجى على وجود أى خلل أو مرض عقلى ولا نفسى. ولكنى أعترض على النتيجة التى يخلصون إليها. فهى تتعارض مع النظرية الخاصة بعلم نفس فترة البلوغ التى عرضوا لها. فإذا ما قاربت بين هذه النظرية والمبادئ العامة للقانون الجنائى، أجد نفسى محمولًا بالضرورة على استخلاص أنه لا يمكن اعتبار «روديرو» مسئولًا مسئولية كاملة عن تصرفاته.

ويضيف السيد «ديرون» فيما بعد:

- إن تقييم تصرف ما من الناحية الأخلاقية يعتمد بشكل أساسى على حجم الحرية التى يتمتع بها من يرتكب هذا الفعل.

ثم يستشهد المحامى بالعبارات التالية لكبير القضاة المستشار «فيليه»:

- الحرية هى فى الوقت ذاته شرط ومبرر مسئولية الإنسان. وليس المقصود بذلك إمكانية التحرك بدنيًا فى اتجاه أو آخر؛ فالحيوانات لديها هذه الحرية وليس من الممكن التفكير بمساءلتها عن تصرفاتها. المقصودة هنا هى الحرية المقترنة بالعقل والذكاء. بالشكل الذى يجعل المسئولية الجنائية ترتكز على شرطين أساسيين؛ العقل، بمعنى الفطنة والإدراك اللذسن يعطيان القدرة على التمييز بين الخير والشر، وكذلك الإرادة الحرة أو الحرية التى تسمح بالاختيار ما بين الخير والشر.

ومن جانبه يقول البروفسير «ساليل» إن «لا مسئولية بدون حرية»، مركزًا فى الوقت ذاته على المعنى الذى يجب أن نراه فى كلمة حرية فيضيف: «إن الحرية هى حالة، حالة الإنسان عندما تكون لديه سيطرة كاملة على ذاته» فالمرء لا يكون مسئولًا إذا كان واقعًا فريسة للجنون، ففى هذه الحالة ينقصه العقل والحرية فى آن معًا. وبالتالى لا يكون هناك لا جناية ولا جنحة بموجب المادة رقم 64 من القانون الجنائى. ولم يكن قانون 1810 يقبل بأى حال من الأحوال أن تثبت حالة عدم المسئولية خارج نطاق المرضى العقلى أو ما يسميه الأطباء من الحالات المرضية، ولكن هناك تقدمًا قد طرأ على العلوم الجنائية وشملت قانوننا بعض التغييرات. فقد خرج من ذلك النطاق الضيق الأفق. لقد كان من سبقوكم يا سادة إلى هيئة المحلفين الفرنسية هم والأحكام التى اتخذوها السبب الذى دفع السلطة التشريعية إلى تخفيف بعض النقاط الصارمة فى القانون. فلم يكن

قانون 1810 يقبل بأى تقليل فى حجم المسئولية سوى فى حالة الجنون. لم يكن هناك مكان فى هذا القانون للظروف المخففة. وعلى الرغم من ذلك، كانت هيئة المحلفين تتعرض فى كثير من الأحيان لمواقف تضعها أمام شخص يحاول الدفاع عن نفسه يفضح ظروف حياته وكل وسائل الجذب التى وقع تحت سطوتها، وكل لحظات فقدان الصواب التى حالت دون رؤيته للصواب: وكان المحلفون يفهمون تمامًا عندئذ أنه بعيدًا عن الجنون هناك درجات مختلفة فى مسألة الحرية. ولكن نظرًا لتعذر قياس درجة المسئولية بشكل ما، كانوا يحكمون بالبراءة ببساطة وسهولة.

وهكذا، نزولا على رغبة هيئة المحلفين، أدخل المشرع على مرتين متتاليتين فى عام 1824 و 1832 مفهوم الظروف المخففة.

ويقول «ساليل»، الذى أُقتبست منه حرفيًا العرض السابق سياقه، «أنه يجب ألا يقتصر الدليل القضائى من الآن فصاعدًا على حالات التشخيص المرضية، فهذه مسألة بسيطة وتعتمد على الاستبيان الطبى البحت، وإنما يعتمد على علم النفس الأخلاقى وعلى معرفة ما إذا كان الفعل الملموس قد تم أثناء تمتع صاحبه بحريته».

ثم فى محاولة لإلقاء الضوء أمام المحلفين على ما يترتب عن أجوبتهم بالنسبة للمتهم، يقول السيد «ديرون»:

- بغض النظر عن مسألة التمييز والتى سأعود إليها عما قليل، سوف أطرح عليكم يا سادة سؤالين لكل حالة من حالات الضحايا السبع. سؤال رئيسى والآخر ملحق به: «هل قتل «روديرو»

عمدًا؟... سوف تجيبون بالإيجاب. أما السؤال الثانى فسيكون حول الظروف المشددة للعقوبة. وهذا السؤال لن يكون متماثلًا بالنسبة لحالة «مابيت» والست حالات الأخرى».

- إن الظرف المشدد للعقوبة فى حالة الأب هو: «هل سبق قتله الجرائم الأخرى أم تزامن معها أم أعقبها؟»

- أطلب منكم يا سادة أن تجيبوا بالنفى عن هذا السؤال وإليكم السبب: صحيح أنه من الناحية المادية كانت جريمة قتل «مابيت» تسبق الجرائم الست الأخرى وتتزامن معها. ولكن هذا الظرف المادى البحت غير كافٍ لإقامة إجراء تشديد العقوبة المنصوص عليه فى القانون. فإن الظرف الذى كان يعنيه المشرع هو التزامن المعنوى أو الروحى، بمعنى أن ترتكب الجريمة بهدف تسهيل عملية ارتكاب جريمة أخرى. لكى يكون هناك وجود للظروف المشددة يجب أن يتم التخطيط للجريمتين فى وقت واحد. وهو ما يوضحه مواطننا «فوستين هيلى» فى كتابه نظرية القانون الجنائى (الجزء الثالث، رقم 13047) حيث يقول: «بوجه عام، لا يمكن اعتبار الجريمتين متزامتين إلا إذا كانتا نتيجة لحظة واحدة وفعل واحد وارتكبتا فى نفس الزمان ونفس المكان» هذا، ومن المؤكد أن «روديرو» لم يفكر قط فى اللحظة التى ضرب فيها «مابيت» فى قتل ضحايا آخرين.

- فلتجيبوا إذن بالنفى عن ذلك السؤال الملحق.

وهذا ما لم يفعله المحلفون قط.

V

سوف نعرض فيما يلى، على سبيل الختام، الملحق المرفق بالتقرير الطبى:

- بعد جلستين لم تضيفا أى جديد للقضية جاءت إجابات هيئة المحلفين على جميع الأسئلة بالإيجاب، فحكمت المحكمة على «روديرو» بأقصى عقوبة تنطبق على سنة، وهى السجن عشرون عامًا.

- خلال الجلسات كان «روديـرو» جالسًا على مقعده، مطرق الرأس، باكم الوجه. حاله كحال طفل مخطئ ينتظر عقوبة مهمة. وحدها فقط أقوال الشاهد ش...، التى كانت تهدف إلى غثبات سبق الإصرار، كانت تدفعه لتجديد وتأكيد نفيه القاطع لها(*)، بكى «روديرو» عندما صعد خاله إلى المنصة للإدلاء بشهادته. كما أفلتت منه أيضًا بضع عبرات فى أثناء إلقاء قرار الاتهام وأثناء مرافعته محاميه لم يكن به أى شىء مما يميز مجرمى محكمة الجنايات.

- وخلال الأشهر التى قضاها «روديرو» فى عيادة سجن مدينة نانت، لم يلاحظ عليه أى شىء غريب جدير بالذكر. وقد أدلى رئيس حراس السجن بقول نقلته جريدة لوفار بالطريقة التالية:

(*) تجدر الإشارة هنا إلى أن محامى الدفاع قد فصّل خلال الجلسة بعض الوقائع التى نزعت إلى الدفع بالاعتقاد بأن هذا الشخص مولع بالكذب (وهذا هو ما أشرنا إليه مطولًا من قبل).

- «لاحظ الشاهد أن «روديرو» كان كتومًا، ماكرًا، محترسًا، وتقتصر إجاباته على الكلمات أحادية المقطع. كان ينام جيدًا ويأكل جيدًا ولا يبدو عليه الخوف من قضيته. ولا يستطيع الشاهد أن يجزم إذا ما كان المتهم نادمًا على فعلته، ولكنه علم أنه بكى ذات مرة بعد مقابلة مع محاميه.

- لم يبك «روديرو» مرة واحدة فقط: فقد بكى عندما زارته والدته؛ كما بكى عدة مرات أمامنا عندما كنا نأتى على ذكر ضحاياه، وفى اليوم التالى للحكم فى القضية بكى طويلا وبحرقة كما يبكى الطفل. وعندما جفت دموعه عادت إليه مشاعر عدم الاكتراث كطفل يشعر بالتسلية لأقل سبب، يضحك من لا شىء ويتأثر كل التأثير بالعالم الخارجى. كانت ذكرى عائلته هى الشىء الوحيد الذى يعيده للحظات إلى أرض الواقع ويجعل دموعه تتساقط. وبهذا الصدد، يرجع الفضل إلى حسن تعاون السيد «أبيل ديرون» المحامى المحترم المكلف بالدفاع عنه فى أننا نستطيع أن نسوق هنا نسخة من الرسالة(*) التى كتبها ووجهها إلى والديه فى اليوم التالى للحكم فى قضيته. وهى الرسالة التى بدت لنا من أكثر الرسائل تميزًا:

والدىَّ الأعزاء،

أكتب إليكما لأخبركما بأن اليوم المهم قد إنقضى ولكن دون نتيجة طيبة بكل أسف. فكما تعلمان قد حُكِمَ علىَّ بالسجن لمدة عشرين عامًا

(*) لقد احترمنا طريقة الكتابة وعلامات الترقيم.

طويلة فى إصلاحية للأحداث. فكما ترون يا والدى الأعزاء سوف يدركنا الموت قبل أن نتقابل مرة أخرى، ولذا يجب أن تأتيا لاستلام أغراضى فقد تضيع. وإذا قررتما المجيء فليكن ذلك إما يوم السبت أو الثلاثاء، لأنه ممنوع زيارة المحكوم عليهم فيما عدا هذين اليومين. ولاتنسوا أن تعطوننى عنوانكما عندما تغادران البلد الذى كنا ننعم بالعيش فيه قبل ذلك اليوم المشئوم، الثلاثين من سبتمبر الذى ارتكبت فيه تلك الجريمة النكراء، والتى ستبقينى إلى الأبد بعيدًا عن والد رائع وأم رائعة وإخوة وأخوات رائعين لن أراهم أبدا بعد ذلك، وجدى المسكين الذى كان يحبنى كثيرًا، والذى لن أراه هو الآخر، وكليمانتين وبيرت اللتين أحبهما كثيرًا، وكذلك جان الموجود بالجزائر كم كان طيبًا معى، يا للعار الذى حل بكم جميعًا دونما ذنب اقترفتموه: سوف تخبروننى إذا كانت مارى لا تزال فى ت.... لابد أن رفيقاتها يحدثونها عنى إذا كانت ولا تزال هناك وربما كن لا ينظرن حتى إليها ولا ذنب لها هى الأخرى فى ذلك.

علمت لتوى من محامىَّ أن والدى مرض لاضطراره مغادرة البلدة، أتمنى أن يشفى عما قريب لتتركوا هذه البلدة المشئومة التى كانت جميلة جدا قبل ارتكابى أنا الشاب البائس لهذه الجريمة.

لا أعتقد أننى سأبقى طويلًا فى نانت وسوف أرسل إليكم عنوان المكان الجديد الذى سأنقل إليه حتى أستطيع أن أتلقى أخباركم، لأن عدم تلقيها سيكون أمرًا فى غاية الصعوبة بالنسبة لى. فلترسلوا لى ردًا على رسالتى تطلعوننى فيه على أخبار والدى العزيز الذى يبكى ولده المحكوم عليه بعدم رؤيته بعد الآن، أتصور أنه سيشفى سريعًا ويستعيد شجاعته. اكتبوا لى أيضا عن أخبار جدى الذى أتصور أنه قد تقدم فى العمر.

ولدكم الذى يفكر فيما اقترفه ويبكى عندما يفكر فى الجريمة الشنعاء التى جلبت عليكم المعاناة والخزى لبقية حياتكما، وكذلك حياة أشقائى وشقيقاتى الطيبين الذين سيأسفون دومًا على هذه الجريمة الكبرى التى ارتكبها أخوهم الصغير الذى سيظل سجينًا إلى الأبد.

ولدكم الذى يرسل قبلاته باكيًا إلى والديه اللذين سيظلان دائمًا وأبدا بعيدين عنه.

مارسيل روديرو

- إن هذا الخليط من الهموم الساذجة ومشاعر الندم الصادقة يجعل من هذه الرسالة مستندًا نفسيًا يؤكد تمامًا على صحة طريقة حكمنا على عقلية صاحبها ويعفينا من تقديم المزيد من التعليقات.

*

كتب السيد «جاتيان روندو» مراسلى اللطيف يخبرنى أن علاقة «مارسيل روديرو» بمحاميه لم تنقطع حتى بعد الحكم عليه، فقد بقى ذلك المحامى مشغولا باللغز النفسى الذى لم تستطع دراسة عميقة لملف القضية كشف غموضه. وقد ظل «روديرو» بعد إصدار الحكم وحتى وفاته يحمل مشاعر بناءة، ولم يستطع محاميه أن يمنع نفسه من الشعور تجاهه بود وتعاطف مماثلين لما يشعر به موررياك تجاه أبطال رواياته من الـ «مجرمين». توفى «مارسيل روديرو» بداء السل فى إصلاحية الأحداث بـX... فى شهر فبراير من عام 1916، وقد تلقى محاميه منه رسالة وداع مؤثرة قبل وفاته بعدةأسابيع. وقد ظل سلوكه داخل الإصلاحية موضع رضاء الجميع.

* * *

المؤلف فى سطور:

أندريه جيد (1869 ـ 1951)

أديب فرنسى كبير حصل على جائزة نوبل فى الأدب لعام 1947. ويعتبر من أهم وأعظم كتاب القرن العشرين على الإطلاق وليس فى فرنسا فقط، اشتهر بكونه أحد أهم رواد الرواية الحديثة بشكلها الدرامى المعقد، كما أسس فى عام 1909، مع آخرين، المجلة الفرنسية الجديدة والتى أصبحت بمرور السنوات بمثابة مدرسة أوربية عريقة. كرس حياته لدور ومسئولية الكاتب ورجل الأدب، فساهم كثيرًا بأرائه ومواقفه البناءة في أزمات ومشكلات عصره، فكان فى طليعة الأدباء المناهضين للكولونيالية وكل صور الدكتاتورية، والمناضلين من أجل الحرية والسلام. وكان كذلك مترجمًا لامعًا، فقد ترجم أعمالاً مهمة لكتاب عظام مثل: طاغور وشكسبير وجوته ويليام بليك وبوشيكين.

المترجمة فى سطور:

سحر سمير يوسف

مدرس فى قسم اللغة الفرنسية وآدابها والترجمة، كلية الدراسات الإنسانية، جامعة الأزهر. حاصلة على الدكتوراه فى اللغويات والترجمة. تعمل فى مجال الترجمة منذ عام 1990 . صدرت لها ترجمة لمجموعة قصصية للأديب الفرنسى جى دى موباسان فى المشروع القومى للترجمة.

التصحيح اللغوى: وجيه فاروق
الإشـراف الفنـى: حسـن كامل



نما إلى علم النائب العام في مدينة بواتييه، عن طريق رسالة من مجهول في الثاني والعشرين من شهر مايو ١٩٠١، أن الآنسة ميلانى باستيان، البالغة من العمر اثنين وخمسين عاما، ظلت محبوسة لأكثر من خمسة وعشرين عامًا في منزل والدتها (أرملة العميد السابق لكلية الآداب بمدينة بواتييه)، وذلك في حجرة قذرة منفرة، تعيش فى ظلام دامس وسط القمامة.

كيف انتهت هذه القضية المخيفة، التي بدت المسئولية الجنائية للسيدة باستيان وولدها عنها واضحة جلية، ببراءة المتهمين؟

يفند أندريه جيد من خلال هذا الكتاب ملف هذه القضية التي وصفت في عصرها بالأسطورية، ليوجزه في النهاية بمقولته الشهيرة "لا تطلقوا الأحكام".

تصميم الغلاف: نادية كشك